تصميم : أمنية العربي

امرأة بين ثلاثة

سحر نعمة الله

منارة الأفكار
للنشر الإلكتروني

امرأة بـين ثـلاثـة

بقلم:سحـر نعمـة اللّه

جميع الحقوق محفوظة @ دار نشر منارة الأفكار للنشر
الإلكتروني مارس 2015

امرأة بين ثلاثة تأليف:أ. سحر نعمة الله

رسم غلاف:أ. أمنية العربي

حساب الدار

https://www.facebook.com/profile.php?id=100009388384268

الموقع الإلكتروني للدار

http://www.manaretalafkar.blogspot.com

إهداء:

إلـــى القَـــارِئ الفَخـــمِ أُهـــديكَ هَـــذهِ الرّوايـــةَ فَبـــينَ دفتيْهَـــا حكايـــةٌ، فَربمـــا نتّفـــقُ أَوْ تختلـــفُ فـــي مَضـــمونِهَا، لكنَّهَـــا واقـــعٌ يحيَـــا بيننَـــا، وإنْ تغَـــايرتْ الأَســـماءُ، قَطعًـــا تشَـــابهتْ الأَحـــداثُ، أَتمنـــى لـــكَ قِـــراءةً هَادفةً ثَريّةً.

*شكر وتقدير:

لأستاذي:أبي طلال

لأستاذي:عادل حسين

"المرأةُ ضعيفةٌ بفطرتِها وتركيبِهَا،
وهي على ذلكَ تأبى أنْ تكونَ ضعيفةً أوْ تُقرّ
بالضعفِ إلاّ إذَا وجدتْ رجلَها الكاملَ،
رجلُهَا الذّي يكونُ معَهَا بقوتِهِ وَعقلِهِ وفتنتِهِ لهَا
وحبّها إيَاه"

الرافعي

الجزء الأول

(1)

لم تكن الوحدة وحدها كافية أن تتغلغل إلى النفس وتسيطر عليها، فقد كان للملل النصيب الأعظم بكل درجاته المميتة، يكفيه أن يفقدها أي متعة أو لذّة مبهجة.

في هذه اللحظة، كاد الأرق يصل بروح هذه المسكينة إلى حالة اختناق نفسي تلهث فيها الأنفاس كأنها في معركة ضارية، تتشبث النفس بشدّة كي تستعيد حالة الإحساس أنها تتنفس، وتشعر بأن بين ضلوعها قلبًا ما زال ينبض.

لحظة متوترة حرجة تمرّ بين الحقيقة والخيال، يتصارع الاتزان بضراوة في معركة اللاوعي خشية أن تتسرب الوجودية من بين دائرته الحياتية الواعية.
تشتد المعركة على أرض متعرجة وجلة لتصل إلى مبتغى الرحيل تكاد الأنفاس تتوقف، سرعان ما أوشكت الروح أن تختنق لتلفظ رمقها الأخير،هاهي الآن تكاد تحتضر، فطفق القلب يدق في ترقب ورهبة، يتحسس قطرات الدم بين أركانه يستعطفها أن تعانق الشرايين تحضنها برفق لتبعث قبلات الحياة لهذا الجسد السّاكن، يترجاها بكل لحظات عانق فيها الروح واندمجا بقوة الخيال والحلم.
يتوسل إليها بآهات الحبيب وعبرات الخوف أن تضمَّ هذا

الـــروح إليه،ضـــمّة حبيـــب مشـــتاق أضـــنَتْهُ رهبـــة الفـــراق.
أيّتهـــا القطـــرات أشـــفقي علـــى قلـــب عشـــق هـــذا الـــروح.
أيّتهـــا القطـــرات بلغـــي روحـــي قـــبلات عاشـــق ينتظـــر اللقـــاء.
وفجـــأة دفعـــة واحـــدة هَـــزّتْ جســـدها، زلزلتـــه عـــن مكانـــه، فـــي لحظـــة تقابلـــت رســـائل العشـــاق، تعانقـــت قـــبلات القلـــب مـــع نســـــــــمات الـــــــــروح.
تحـــرّر الـــروح مـــن قبضـــة الاختناق،أفـــاق مـــن غيبوبـــة الرحيـــل، تمتمت بصوت ضعيف منقبض:

-يا الله.

مـــا هـــذه اللحظـــة التـــي اختطفتنـــي فـــي دائرتها،أكـــاد أرى المـــوت يتـــــــربص بـــــــي؟! يـــــــا الله.رحمتـــــــك يـــــــا إلهـــــــي.
أحســـت بثقـــل يجـــثم علـــى صـــدرها ذرفـــت الـــدموع فـــي خـــوف تضـــم جســـدها المـــرتعش، يتزايـــد الخـــوف فتشـــهق بحرقـــة وانكســـار. تتســـاقط دموعهـــا الســـاخنة فتـــدفئ خـــدها البـــارد، ثـــم تســـترخي أعصـــابها المتشـــنجة فتـــدفن رأســـها بـــين يـــديها فـــي استسلام، تغمض عينيها قلقة وجلة، تتمنى السكينة.

قبضـــت يـــداها الكرســـي خائفـــة تكـــاد تـــرتطم بـــالأرض، لحظـــة قاتلـــة بـــين الـــوعي واللاوعـــي جعلـــت كـــل شـــيء حولهـــا يخـــرج عن السيطرة والانقياد.

حبســـت أنفاســـها قلـــيلًا ثـــم أخـــذت نفَسًـــا عميقًـــا وتوجّهـــت إلـــى ســـــــــريرها تفاديًـــــــا لســـــــــقوطها علـــــــــى الأرض.
أصـــابها همـــود وضـــعف فاســـترخت أطرافهـــا ومـــددت جســـدها المنهـــار، ثـــم شـــرعت فـــي الاســـتغفار، تتمنـــى لـــو تتماســـك قلـــيلا

لتنتشل من ظلمة وسيطرة هذه اللحظة.

مرت دقائق استطاعت أن تقاوم بعد إصرار ونهضت تصنع لنفسها كوبا من عصير الليمون، لعلّه يُنعِشُها، بعد دقائق أخرى جلست على الأريكة في غرفة معدة لاستقبال الضيوف، تمددت وأغمضت عينيها في هدوء مكدودة على أمرها محاولة أن تتناسى شريط هذه اللحظة المميتة،سمعت صوت مفاتيح في الخارج فأدركت أنّ زوجها قد أتى، حدقت في الساعة التي قاربت إلى منتصف الليل، حاولت أن تنهض مرة أخرى كي تستقبله، لكنها أخفقت فظلت جالسة في مكانها تخفي ارتجافها، نظرتها مصوّبة ناحية دخوله من باب الشقة، لمحها بطرف عينه تنظر إليه، ذهب إليها تعلو وجهه علامات الاستغراب، حدق بها قائلا:

-لِمَ تجلسين هنا ؟!، ليس كعادتك جاثمة أمام الحاسوب منشغلة في صفحات الإنترنت!.

ابتسمت بألم قائلة:شعرت ببعض إرهاق ودوار خفيف. قاطعها باستياء واجمًا:ليتك تشعرين بالتعب والإرهاق الذي أعانيه.

صمت برهة ثم قال:

-هيا حضري لي العشاء.

طأطأت رأسها بانكسار ولم تنبس بكلمة، نهضت بثقل وضعف تغمض عينيها من الألم وتئن داخلها من جرح

غـــــائر ينـــــزف بـــــبطء ويتوغـــــل فـــــي مكـــــر ليتســـــع.

تمتم بتأفف:

-أخبرتـــــكِ ســـــابقًا أن تقللـــــي مـــــن جلســـــتك أمـــــام الحاســـــوب، أتريدين أن أعاقبك وأمنعك بالقوة؟!.

التفتت إليه في ضيق ممزوج بقلق وقالت:

-وهل اشتكيت لكَ.

فقاطعها بنبرة حادة:

-فلتهتمـــــي بواجباتـــــك الزوجيـــــة، وأولادك، كفـــــى إهمـــــالًا. ذرفـــــت دمعة تحاول أن تحبسها ولم تتكلم.

ســـــاد صـــــمت ثقيـــــل ، ثـــــم أحضـــــرت لـــــه العشـــــاء وتركتـــــه لتخلـــــد للنوم، فصاح قائلا:

-انتظـــري حتـــى أنهـــي العشـــاء وتصـــنعين لـــي كوبـــا مـــن الشـــاي.

حدقت به قائلة:

-شاي؟، ألا ترى الساعة، اقتربت من الواحدة صباحًا!.

ابتسم بلطف:

-لا يهم، أريد أن أقضي معك يوم غد.

نظرت باستغراب:

-وعملك يا شوقي؟!

-سآخذ إجازة.

حـــدقت ولـــم تعلـــق، جلســـت جانبـــه علـــى كرســـي المائـــدة شـــاردة صـــامتة تكـــتم ألمهـــا,وإن كـــان أمرهـــا لا يعنيـــه كثيرًا،فمـــا يشـــغله أن تلبي ما يطلبه، دون اعتراض أو تعقيب.

قالها وهزّها بشدة:

-أنهيت العشاء، أين كوب الشاي؟!.

نهضـــت بـــنفس شـــرودها، صـــنعت لـــه كوبًـــا مـــن الشـــاي ووضـــعته دون أن تـــتكلم اتجهـــت إلـــى غرفـــة النـــوم فقـــد أخـــذ الإعياء منها مأخذًا.

ناداها:

-إلى أين ذاهبة تعالي اجلسي جانبي أريدك قليلا.

فردت بألم:

-أريد أن أنام أشعر بصداع شديد يفتك رأسي.

فصاح بتذمر:

-بدا التعب الآن؟!.

صمت برهة وتأفف ساخرا:

-هيا اذهبي.

نظـــرت لـــه بانكســـار وتركتـــه، دموعهـــا تغمـــر عينيهـــا، ارتمـــت علـــى ســـريرها تنتحـــب، تكـــتم شـــهقاتها، والـــدموع تنهمـــر كمطـــر غاضـــب علـــى وســـادتها بغـــزارة، أنهكهـــا البكـــاء فغابـــت فـــي سبات عميق.

(2)

-يمنى اقترب أذان الفجر، على وشك.هيا.

صاح شوقي بحدة.

فتحت عينيها تضغط على جبهتها بيديها وتتمتم:

-شوقي.أصابني صداع فظيع، دماغي تكاد تنفجر.

قال بتذمر:

-دوما تشتكين هكذا، ليس وراءك إلا المرض.

قالت وهي تضرب بيدها رأسها:

-صداع فظيع، لو سمحت اتركني الآن، أرجوك.

تمعّر وجهه من الغيظ وتركها ليذهب إلى صلاة الفجر، مرت ساعة ويمنى تبكي من شدة الألم، تضع طرف الوسادة بين أسنانها لتكتم صراخها، سقوط دمعة أو رجفة ألم تؤلمها، تسطر ذكرى قاتمة في حياتها، ترسم قلبًا ضائعًا ينزف يبحث عن حضن يضمّه، يعتصره، يعوضه عن الحنان والدفء الذي يفتقده، بعد ساعة أخرى لاحت تباشير الصباح بما تحمله ليمنى من أحداث

وآمال،تحاملت وهي تحاول أن تنهض عن السرير ببطء وعدم اتزان، اتجهت إلى الثلاجة تبحث عن مسكن يخفف نوبة الصداع عثرت عليه فابتلعته وارتمت على سريرها مرة أخرى.

دقائق وسرى مفعول المسكن فهدأ الألم قليلا، استعادت بعضًا من نشاطها وذهبت لتتوضأ وتصلي الصبح، عاد شوقي يحمل بعض الأكياس، ناداها فلم ترد، وضع الأكياس في المطبخ، ثم اتجه يبحث عنها في الغرف حتى وجدها تصلي، ألقى عليها نظرة باردة واتجه لحاسوبه، يقضي معه معظم وقته كعادته.

وقفت يمنى تبكي في صلاتها،تذرف الدموع بغزارة وخوف، حتى هدأت أعصابها وسكن قلبها قليلا، فرغت من الصلاة وجلست تستغفر، عقلها يفكر في اللحظة المميتة التي باغتتها البارحة ، لم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء تكتم صوتها، انتبهت لصوت زوجها يناديها،مسحت دموعها بسرعة ونهضت عن مكانها تكتم خوالجها،وقفت أمامه وقالت بألم:

-صباح الخير يا شوقي، هل تريد أجهز الفطور الآن؟ أخبرني كم الساعة؟.

دون أن ينظر إليها أو يعيرها أي اهتمام قال:

-السادسة، أنا جوعان جدًّا، اشتريت بعض أنواع من الجبن والعصائر رجاء جهزي الفطور سريعاً.

أومأت برأسها وانصرفت إلى المطبخ تجهز الطعام، اتجهت للثلاجة وأخرجت إناء مليئا باللبن ووضعته على الموقد، ما زالت شاردة صامتة، تشعر بالضعف والألم، سخنت اللبن واتجهت لغرفة مجاورة للمطبخ،فتحت بابها فتبدلت نظرة الحزن إلى ابتسامة ما أن رأت طفليها (إيهاب وأمجد) حتى أسرعت تحتضنهما وتضمهما إلى حضنها قائلة:

-أمجد إيهاب هيا استيقظا، لتلحقا المدرسة، هيا يا قلبي. لم تجد منهما استجابة، نادت زوجها بصوت عالٍ، ما أن سمع الولدان اسم والدهما هبا في ضجر وتذمر يقولان:

-أمي لا نريد أن نذهب إلى المدرسة هذا اليوم.

-لمَ يا أمجد؟!، لا تنس أنك الآن في الصف الرابع الابتدائي، والمناهج زادت عليها موادًا أخرى عن السنة السابقة.

فصاح إيهاب بصوت طفولي بريء:

-أمي، أمي أرجوك لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

ضحكت يمنى:

-حتى أنت يا إيهاب!، مللت المدرسة، أنت في الصف الأول الابتدائي.

صاحت بضيق:

-أنت لا تزال في البداية، ماذا تفعل بعد ذلك؟!.

جاء شوقي إليهم يتأفف وقال:ماذا حدث ؟.

قالت باستياء:

- ولداك لا يريدان الذهاب إلى المدرسة.
فنظر إليهما بغيظ وقال:البسا حالا لتلحقا موعد المدرسة.
تركتهما لتستكمل باقي الفطور ووضعته على المنضدة ثم دخلت إليهما مرة أخرى لترى ماذا فعلا؟!
وجدتهما أنهيا ارتداء ملابس المدرسة وحمل كل منهما حقيبته ، فابتسمت وأخذتهما ليفطرا!.

ابتسم والدهما وقال:

أخيـــرًا هيـــا بســـرعة، قبـــل أن تتـــأخرا علـــى موعـــد طـــابور الصباح.

أســـرعا إلـــى والـــدهما صـــامتين وجلســـوا يفطـــرون، لـــم تأكـــل معهـــم يمنـــى بـــل ذهبـــت إلـــى المطـــبخ لتجهـــز بعـــض الشـــطائر ثـــم وضعتهـــا فـــي حقيبـــة أمجـــد وإيهاب،وأخـــذت الطفلـــين واتجهـــت إلى المدرسة وقبل أن تخرج، صاح شوقي قائلا:

-يمنى لا تتأخري.

التفت إليه وأومأت برأسها وخرجت.

(3)

أغلقت خلفها الباب وفي يديها طفلاها تقبض على يد كليهما وفي داخلها صراعات نفسية تقهرها تشعرها بالضعف والعجز والخوف، كانت تسير في الشارع بخطى متثاقلة كأنها عجوز في الستين، أثر هذا في نفسها كثيرا وهي لا تزال في سن الثلاثين فذرفت دمعة حزينة تنعي ما وصلت إليه، تهمس في نفسها:

-يا ربي ماذا حدث لي؟!، من يراني يظنني عجوزًا أنهكها المرض، وشاب شعرها، ذبل عمري وانطفأت شمعة الحياة داخلي فصرت أطلال امرأة بائسة كثوب بالٍ مهلهل، لم يعد يصلح لشيء غير أن يمزق ويرمى في أقرب سلة مهملات، حينما يشيخ القلب يشيب معه الجسد كله. خنقتها، نعم. خنقت تلك الأحاسيس الدافئة التي طالما تمنيت أن أعيشها، وحلمت أن أتذوق طعمها، كتمت صوتها ودفنتها داخلي في مقبرة الذكريات، ليتها تتلاشى من طيف خيالي الواهم.

شعرت بغصة تتعقد وتنمو في حلقها، سرعان ما امتغصت معدتها وبدأت تؤلمها، ودون أن تشعر أفاقت واجمة على اصطدامها في شخص أمامها، انتفضت مذعورة تحدق فيه، يا له من رجل ضخم!.هي متوسطة الطول لكنها أمام طول هذا الرجل شعرت بالقصر والانكماش، حبست

أنفاسها تتلفت حولها تبحث عن طفليها فوجدت يديها لا تزال تقبض عليهما، تنفست الصعداء وحمدت ربها، رفعت نظرها لترى هذا الشخص، فاعتلتها الدهشة كان ينظر لها نظرة عميقة تزينها ابتسامة هادئة، فغمز لها قائلا:

-صباح الخير.

تغيرت ملامحها وبدا على وجهها الاستياء والضيق، ولم ترد، ،نظرت إليه بغيظ وغضب وقبل أن تستكمل طريقها، همس قائلا:

-فديتُ هذي العيون!.

شعرت بهزة قوية تسري في جسدها، تشعرها بإحساس يوقظ داخلها أنثى محطمة، يمنحها شعورًا هادئًا لذيذًا، طفا على صفحات الحزن والأسى التي احتلت قلبها،فأغمضت عينيها لحظة واستكملت المشي، أفاقت على صوت ابنها أمجد قائلا:

- أمي تأخرنا على المدرسة حدقت بالساعة في يدها تجاوزت السابعة والنصف، أسرعت الخطى لا تعرف هل سببه التأخير أم هروبًا من ذاك الإحساس الذي حرك مشاعرها ؟!.

بعد دقائق وصلت إلى باب المدرسة، أدخلت طفليها إلى الفناء وودعتهما بابتسامة مصطنعة، أسندت ظهرها على سور المدرسة، ووضعت يدها على فمها تتمتم بكلمات مهموسة:

-يـــا إلهـــي كنـــت سأنســـى أن أشـــتري بعـــض التوابـــل والخضـــار لغداء اليوم.

أثنـــاء توجههـــا إلـــى الطريـــق المـــؤدي إلـــى الســـوق، لمحـــت الشـــخص الـــذي اصـــطدمت بـــه منـــذ قليـــل يغازلهـــا بـــنفس الابتســـامة الهادئـــة وتلـــك النظـــرة الغامضـــة، انتابهـــا الخـــوف فارتعشت وتمتمت في نفسها:

-ما به هذا الرجل لماذا يتابعني بنظره؟!.

أســـرعت ترتجـــف إلـــى الســـوق، اشـــترت مـــا تحتاجـــه، وكلمـــا تـــذكرت نظـــرة هـــذا الشـــخص وكلماته،تبتســـم، طـــردت هـــذا الشـــعور ومحـــت الابتســـامة وعـــادت لـــنفس ملامحهـــا الحزينـــة، وبطريقـــة غيـــر إراديـــة تلفتـــت حولهـــا لتتأكـــد أنـــه لا يتبعهـــا، حينمـــا اطمأنـــت أنـــه انصـــرف، عـــادت إلـــى شـــقتها تحمـــل نظـــرات الشرود والحزن.

أخرجـــت مفتـــاح شـــقتها مـــن حقيبتهـــا وهمـــت لتفـــتح البـــاب، ففوجئـــت أن البـــاب لا يفـــتح، حاولـــت مـــرارًا لكنـــه لـــم يســـتجب، تأففـــت مغتاظـــة، وأدركـــت أن زوجهـــا أغلـــق البـــاب مـــن الـــداخل، فـــدقت البـــاب فـــي غضـــب تحـــاول أن تكتمـــه حتـــى لا تعطـــي لـــه فرصـــة تصـــنّع مشـــكلة بينهمـــا، ووقتئـــذ ســـتتحمل عواقبهـــا وحدها،فدوما هي المذنبة.

بعـــد بضـــع دقـــائق مغلفـــة بتمتماتهـــا المهموســـة وعبـــارات الســـب واللعـــن غيـــر المفهومـــة، رفـــق زوجهـــا بحالهـــا وفـــتح البـــاب، نظـــرت إليـــه نظـــرة تحمـــل الكثيـــر والكثيـــر ولـــم تنطـــق،

استشـــاطت غيظـــا عنـــدما وجدتـــه يتحـــدث فـــي الهـــاتف دون أن يبـــالي لهـــا أو يكتـــرث لوجودها،تركهـــا صـــامتة واجمـــة تكبـــت بركـــان الغضـــب داخلهـــا، وقفـــل إلـــى غرفـــة النـــوم وأغلـــق بابهـــا، تســـمرت دقيقـــة مشـــلولة التفكيـــر، حتـــى أومـــأت برأســـها استســـلاما، لـــم تجـــد أمامهـــا غيـــر أن تتعامـــل بمنتهـــى البـــرود واللامبـــالاة، اتجهـــت إلـــى المطـــبخ ووضـــعت مـــا اشـــترته، ثـــم عـــادت أدراجهـــا تـــدق عليـــه بـــاب الغرفـــة تتصـــنع الهـــدوء والخنوع،فنادته:

-شـــوقي حبيبـــي ممكـــن تفـــتح البـــاب كـــي أغيّـــر ملابســـي؟ لـــيس الآن، ألا تريْننـــي مشـــغولا بالهـــاتف أرجـــوك قلـــت لـــكِ لـــيس الآن.

جـــزت أســـنانها مـــن الغـــيظ، تكـــاد تفتـــك بـــه مـــن أســـلوبه المســـتفز، وقبـــل أن تتجـــه إلـــى المطـــبخ ســـمعته يقهقـــه بصـــوت عالٍ ويقول:

-كفاية يا ماجي.

(4)

وقفت مكانها كالملدوغة، لا تصدق ما سمعته، لا تتخيل أن توضع في مثل هذا الموقف ولا تعترض أو تبدي أي ردة فعل، همست في نفسها:

-يا للحقارة !!لا تزال تتحدث مع ماجدة يا شوقي، بعد كل ما حدث منها، آهٍ من الوقاحة!.

طأطأت رأسها في صمت، فلم يعد يثيرها إن كان يحدث امرأة أم رجلًا؟!، إحساس الغيرة الذي يدفع المرأة بطريقة غير إرادية،أن تعلن عن مدى حبها ورغبتها في تملك حبيبها، مات، تلاشى ونضب، تبخر مع كل نظرة احتقار منه أو عدم اهتمام بمشاعرها كأنثى، بل كإنسان يمتلك قلبًا يحنو ويشتاق للأمان والحب، تولّد بدلا منه البرود واللامبالاة، كل مشاعر وأحلام أنثى صارت سرابًا وما بقي إلا غريزة الأمومة، الإحساس الفطري المعطاء دون مقابل، اتجهت إلى غرفة طفليها التي تضع فيها حاسوبها لتشغله، لعله ينسيها بعضًا من أحزانها، العالم الافتراضي ساعدها كثيرا أن تتحمل وتصبر، خاصة حينما أدركت طريق القراءة غاصت في بحرها تبني لها عالمها الخاص الذي عاشته في خيالها، فتحت رواية تستكمل قراءتها، لكنها كانت شاردة تعض شفتها بأسنانها، وتكتم ثورة البركان الثائر داخلها، تتمنى لو تنتقم منه لتثأر لكرامتها المهدرة، تثأر لكبرياء أنثى تحطم على عتبة التنازلات والتضحية، ليتها تستطيع أن تصرخ، تثور، لينفجر هذا الكبت المضغوط منذ سنوات طويلة، ليس من وقت زواجها بهذا الرجل فحسب بل منذ سنوات عمرها

الأولى وهي لم تتجاوز الخامسة وقد انفصل والداها، كل واحد منهما اتجه إلى طريقه الذي أراده لنفسه، وفي زحمة انشغالهما بأنفسهما وراحتهما نسيا هذه الطفلة البريئة، مع من ستكون وتترعرع، مع زوج الأم أم مع زوجة الأب؟!استقر بها موج الحياة المتخبط أن تسكن مع جدتها من الأم في شقتها الصغيرة في السيدة زينب، ومع غرة شهر يرسلان لها مبلغًا من المال لنفقتها، مرت بها السنوات تتقاذفها أمواجها بين شاطئ الوحدة والانطواء إلى شاطئ الصمت والخضوع، عاشت كطائر كسير محبوس خائف في قفص وهمي جاف بارد مفتاحه في يدها، كلما حاولت أن تفر منه، دفعتها الحياة إلى أن تقبع فيه وتتشبث بجدرانه تحتمي من نظرة اليتم والشفقة التي تحسها في عيون الآخرين، لأجل أن تبتعد عن الكلمات الساخرة التي تسمعها من أولاد أبيها وأبناء أمها، فعاشت وحيدة صامتة خاضعة مستسلمة تنتظر فارس أحلامها الذي يخرجها من هذا القفص، لترى معه نور الحياة، وتعيش أحلامها وأمنياتها،لم تمنعها وحدتها أو حزنها أن تحلم أو أن تتفوق في دراستها، حب العلم رسّخ عندها متعة المعرفة ولذة الأحلام، التحقت بكلية الآداب، لكن عالم الجامعة لم يستطع أن يخرجها من العزلة التي سكنتها بل زادت الرهبة والخوف،كيف تتعامل مع زميلاتها وهي التي عاشت سنوات سجينة في قفص العزلة،عاجزة أن تبوح بما تعانيه،يكفي أن تتصنع الابتسامة لتوهم من أمامها أنها مثلهم تبتسم، فمن يسمع آهات قلبها البائس أو يستشعر دمعات عينيها اليتيمة؟! بعدت مسافات التواصل وزادت دائرة الانعزال، فنما إحساس الانكسار وعدم الثقة.

لا تـــزال حتـــى الآن تـــذهب إلـــى بيـــت جـــدتها لتطمـــئن عليهـــا، وتـــدخل غرفتهـــا تبكـــي وحـــدها، تتمنـــى أن تعـــود إلـــى هـــذا القفـــص فهـــو أرحـــم مـــن الســـجن الـــذي تعـــيش فيـــه الآن،لكنهـــا لـــن تـــرحم مـــن النظـــرات المتســـلطة واللمـــز والهمـــس، كثيـــرًا مـــا فزعـــت مـــن هـــذا الإحســـاس، واختبـــأت فـــي عالمهـــا الخـــاص، ليســـت بمفردهـــا لتنغلـــق مـــع عالمهـــا الآن، فمعهـــا طفـــلان يخففان عنها بؤس الحياة، من أجلهما تتحمل أي شيء.

فجـــأة شـــعرت بيـــد تهزّهـــا بقـــوة، فالتفـــت مفزوعـــة لتجـــد زوجهـــا ينظر إليها بغضب قائلا:

-أناديـــك منـــذ ربـــع ســـاعة وأنـــتِ شـــاردة فـــي حاســـوبك، ألـــم أحـــذرك قبـــل ذلـــك، وقلـــت لـــك مـــرارًا أن تهتمـــي ببيتـــك، وواجباتك المنزلية، كفي عن هذا.

وفـــي لحظـــة فصـــل الحاســـوب عـــن الكهربـــاء، ونظـــر إليهـــا نظـــــــــرة احتقـــــــــار وانصـــــــــرف.
ظلـــت صـــامتة ســـاكنة، لـــم تبـــدِ أي ردة فعـــل، اســـترخت علـــى الكرســـي وغاصـــت مـــرة أخـــرى فـــي ذكريـــات الماضـــي، منـــذ مـــا يقارب عشر سنوات.

(5)

تـــذكرت اليـــوم الـــذي أخبرتهـــا جـــدتها أن شـــقيق جارتهـــا أم أحمـــد رآهـــا بالمصـــادفة أول أمـــس وأعجـــب بهـــا وقـــت رجوعهـــا مـــن الجامعـــة، وطلـــب مـــن أختـــه أن تحـــدد موعـــدًا كـــي يقابـــل والـــدها ويطلـــب يـــديها،كان هـــذا اليـــوم لحظـــة فارقـــة فـــي حياتهـــا تنتظـــر هـــذا الفـــارس الـــذي سينتشـــلها مـــن قفـــص الوحـــدة والجفـــاف العـــاطفي إلـــى عـــالم الرومانســـية والحـــب، فكـــم عاشـــت فـــي خيالهـــا تشـــتاق لهـــذا اليـــوم، تتمنـــى اللحظـــة التـــي يـــدقّ قلبهـــا لحبيـــب تعشـــقه، تمنحـــه قلبهـــا وذاتهـــا بـــنفس راضية.ابتســـمت وطأطـــأت رأســـها خجـــلا وأســـرعت إلـــى غرفتهـــا، ارتمـــت علـــى ســـريرها تضـــم وســـادتها فـــي حضـــنها، تتخيـــل ملامـــح هـــذا الرجـــل الـــذي أعجـــب بهـــا، تخيلـــت ملامحـــه وطولـــه حتـــى لـــون عينيـــه كانـــت تتمنـــى فارسًـــا بمواصـــفات معينـــة رســـمتها فـــي خيالهـــا وعاشـــت تشـــتاق لتـــراه فـــي الواقـــع، بالفعـــل حـــددت جـــدتها الموعـــد كـــي يـــزورهم واتفقـــت مـــع ابنتهـــا ووالـــد يمنـــى أن يحضـــرا لرؤيـــة العـــريس يـــوم الجمعـــة.

ذرفـــت يمنـــى دمعـــة حزينـــة حينمـــا تـــذكرت هـــذا اليـــوم كانـــت وحيـــدة لـــيس معهـــا أخ ولا أخـــت، أمهـــا لـــم تـــأتِ إلا قبـــل مجـــيء العـــريس بســـاعة، فكـــم تمنـــت أن تجـــد أمهـــا بجوارهـــا، فـــي تلـــك اللحظـــة التـــي تتمناهـــا أي فتـــاة، فرحـــة الأســـرة وســـعادة الأهـــل التـــي تعطـــي جـــوًّا عائليـــا دافئـــا،حتى والـــدها حضـــر بعـــد مجـــيء العـــريس، ممـــا زاد حزنهـــا فكتمـــت دموعهـــا كـــي لا تفســـد فرحتهـــا، يكفـــي أن الحيـــاة فتحـــت لهـــا الأحضـــان، وتبسّـــمت لوجهها البشوش كما ظنت.

في التاسعة رنّ جرس الباب فانتفض قلبها سعادة ورهبة كاد أن يتوقف، فجاءت أمها تزفُّ خبر وصوله، سرعان ما بدّلته بالسب واللعن على طليقها الذي تأخر عن الموعد، واضطرت أن تجلس معه حتى يصل طليقها، بعد ربع ساعة دخل الأب يعتذر وصافح العريس بكل ودٍّ وترحاب، بدأ يستفسر منه عن بعض الأمور مثل الشقة والشبكة وماذا يعمل، ابتسمت أمها عندما علمت أنه محاسب يعمل في شركة كبيرة ومشهورة ولديه رصيد معقول وشقة فاخرة، ذهبت لابنتها تبشرها بالمستقبل المريح الذي ينتظرها بزواجها من هذا الرجل، ارتمت يمنى في حضن أمها ترقص فرحًا وسعادة، كانت ترتدي فستانًا سماويًّا هادئًا، وحجابًا من نفس اللون مما زادها جمالا ورقة، كانت تشبه صفاء السماء في ليلة ربيعية مقمرة،أو رقة البحر حينما يغازل العشاق، أخذتها أمها لترى عريسها، دخلت مطأطئة الرأس متوترة ينتفض قلبها، وترتعش أطرافها، فجلست بجوار أمها تمسك يدها من الخجل، ضحك والدها قائلا:

يمنى ألا تسلمين على عريسك!.

فركت يديها ولم تنطق، فضحك العريس قائلا:

-اتركها يا عمي كما تحب!.

بعد دقائق خرجت الأم ونادت على طليقها لكي يتركهما قليلا ليتعارفا ويحدث بينهما وفاق.

ابتسمت يمنى عندما تذكرت لحظة انكماشها في الكرسي ودقات قلبها تنبض سريعا، ارتبكت حينما وجدته ينهض عن الكرسي، ويتجه إليها ويجلس بجوارها، انتفضت ونهضت لتهرب وتترك الغرفة،فأمسك يديها ليوقفها، قائلا:

-أنت جميلة جدا!.

ارتعشت يدها داخل يده وحدقت به،لم تتوقع هذه الجراءة، ولا هذه الطريقة التي يمسك يدها بها، ورغم أنه لم يكن هذا الفارس الذي رسمته في خيالها، ليس الطول المطلوب ولا العيون الزرق ولا الشعر الكثيف، كان أصلع مقدم الرأس جسده ممتلئ قصير، لكن ملامحه مقبولة إلى حد ما، أحمر وجهها خجلا، وظلت صامتة وهو يتكلم ويحكي لها عن أحلامه وعن الحياة الوردية التي تنتظرها، شعرت بقلبها ينجذب له، يحتويها بكلامه، قالت في نفسها، هذا هو طوق النجاة الذي أنتظره سيعوضني عما فقدته في حياتي، سيمنحني الأمان والعطف والحب الذي أحلم به.
صمتها وخجلها جعلاه يقترب منها ويمسك يدها مرة أخرى وخاصة نظرات عينيه التي تتمعن في كل ملامحها بجراءة، انتفضت تجري خارج الغرفة وهي تبتسم، فأسرعت إليها أمها تقول لها:

-ما رأيك حبيبتي؟ هل نقول مبارك؟ .

ابتسمت وأومأت برأسها خجلا، فأطلقت أمها زغرودة ارتجت لها جدران الغرفة، فاتفق والدها معه على موعد

الخطوبة لكن العريس أقنعه أن يكون عقدا طالما الأمور متيسرة، وسيتكفل بكل شيء، فوافق والدها وحدد الأسبوع القادم يوم العقد والزواج بعد شهر.
بعدما انصرف الجميع دخلت جدتها غرفتها وبدا على وجهها التوتر والقلق فقالت لها:

-يمنى هلّا تحدثنا قليلًا ؟ .

أسرعت يمنى إليها تحضنها قائلة:

طبعا يا جدتي أنت أمي يا غالية.
فربتت جدتها على كتفها وأجلستها بجوارها على السرير وصمتت قليلا ثم قالت:

-يمنى تعلمين كم أحبك وأخاف عليك!أمك وأبوك انفصلا وأنت صغيرة، ضممتك إلى حضني وكأنك ابنتي التي أنجبتها.

قاطعتها يمنى وأخذت يدها تقبلها قائلة:

-يا حبيبتي أنت أغلى من حياتي.
قبلتها جدتها وقالت:

-ولأني أغلى عندك أريدك أن تنصتي جيدا لما سأقوله لك، لأني أعرفك جيدا وأعرف معادن الناس فهذه خبرة سنوات طويلة، أما أنت فغصن أخضر لم تحركه عواصف ولم تجرحه أشواك.

فأومـــأت يمنـــى تحـــدق بجـــدتها تنتظـــر مـــا ســـتقوله.

نظرت الجدة في عينيها قائلة:

-يمنـــى أمتأكـــدة مـــن مشـــاعرك تجـــاه هـــذا الشـــخص؟!، خـــذي يـــا ابنتـــي وقتـــك لتفكـــري، لـــيس بهـــذا التســـرع تبنـــى البيـــوت، هـــذا زواج يـــا حبيبتـــي، لـــيس أمـــرًا ســـهلا، فكـــري مـــرات ومـــرات قبل الموافقة.

ابتسمت يمنى ونهضت عن السرير قائلة:

-اطمئني يا جدتي قلبي يستريح له، فلمَ ننتظر ؟!.

ارتفع صوت جدتها قليلا وقالت:

-يمنـــى فكـــري ثانيـــة هـــو أكبـــر منـــك بخمســـة عشـــر عامـــا، ســـنوات قليلـــة بينـــه وبـــين أبيـــك، أنـــت مـــا زلـــت صـــغيرة لـــم تتجـــاوزي العشـــرين وأمامـــك ســـنة فـــي الجامعـــة، فلـــمَ الاستعجال؟!

-مـــاذا يـــا جـــدتي أنســـيت كلامـــك (دومـــا تقـــولين لـــي البنـــت لـــيس لها إلا بيت زوجها).

صاحت جدتها بغضب:

-تـــذكري نفســـك، ومـــاذا جنـــاه عليـــك والـــداك، لا تكـــرري قصـــتك مرة أخرى وساعتها لن ينفع الندم.

صمتت يمنى وطأطأت رأسها ولم ترد.

نهضت جدتها واقتربت منها قائلة:

-بنيتي فكري هذه حياتك وأنت ستدفعين ثمن اختيارك، قلبي قلق عليك.

قبلتها يمنى على جبهتها مبتسمة وقالت:

-لا تخافي يا أعزّ الناس، فهذا اختياري ولن أندم أبدًا.

أومأت جدتها حزنا واستسلاما، علمت أن لا جدوى من الحديث فقد أخذت قرارها ولن تغيره، تركتها وهي تتمنى أن يكون حدسها غير صحيح، ودعت لها بالسعادة وهناء البال، أفاقت يمنى على صوت المنبه، كانت الساعة الحادية عشرة، انتفضت تسرع إلى المطبخ تجهز الغداء قبل أن يأتي موعد خروج أولادها من المدرسة، وقبل أن يطلب زوجها الطعام، فيومها لن يمر بسلام إذا تأخرت في طهيه. شهقت وهي تمسك بطنها التي تصرخ من الألم، شعرت بدوار خفيف وتذكرت أنها لم تأكل منذ عشاء أمس، فتحت الثلاجة وأخرجت كوبا من العصير شربته ثم ارتخت على الكرسي تلتقط أنفاسها قليلا، مضت ساعة وهي مازالت تجهز الغداء، بكت لأن موعد خروج طفليها من المدرسة حان،ومن سيذهب ليحضرهما الآن؟ أسرعت إلى غرفة المكتب التي كان يجلس فيها زوجها وأمامه بعض الملفات يراجعها في تركيز واهتمام، فنادته بصوت متوسل:

-شوقي ألا تحضر أمجد وإيهاب من المدرسة فأنا مشغولة بتحضير الغداء؟!.

نظـــر إليهـــا ببـــرود ثـــم عـــاود النظـــر إلـــى الملـــف الـــذي أمامـــه قائلا:

-هـــــــذا واجبـــــــك، ألا تريننـــــــي مشـــــــغولا.

نظـــرت إليـــه نظـــرة أمحـــت مـــا تبقـــى مـــن تقـــدير لهـــذا الرجـــل، نظـــرة الاحتقـــار قليلـــة عليـــه. اتجهـــت إلـــى غرفـــة النـــوم تبـــدل ملابســـها وتمســـح دموعهـــا، فاكتشـــفت أنهـــا نفـــس الملابـــس التـــي خرجـــت بهـــا فـــي الصـــباح، أخـــذت حقيبتهـــا تجـــري علـــى الســـلالم، تلهـــث كقطـــة حـــائرة مســـكينة، كلمـــا أصـــابها التعـــب تقف تستريح، ثم تستكمل الطريق وفجأة.

(6)

وفجأة وهي تهرول، يبدو عليها التعب والإعياء، إذا بها تصطدم بذاك الشخص مرة أخرى، لا تدري من أين ظهر بغتة دون توقع؟!، أكان ينتظرها، إلى أن اقتربت تظاهر أنه اصطدم بها دون توقع أو ترتيب ؟!، توقفت مذهولة تلتقط أنفاسها، رفعت عينيها لترى من هذا الشخص، حدقت به مستغربة مضطربة، أمعقول للمرة الثانية تصطدم به دون وعي أو تركيز!!، لم تتوقع أن يكون هو نفس الشخص، انتابها الذعر وتذكرت تتبع نظراته لها في الصباح، ففطنت أنه متعمد ومصرّ أن يصطدم بها هذه المرة، الأمر ليس حسن نية كما يُظنّه الآخرون، بمجرد حدوث ارتطام بالآخر دون قصد يقدم كل منهما الاعتذار وينصرف دون تتبع أو إصرار، الإحساس وحده في هذا اللحظة كفيل أن يلتمس الأعذار ويقبل الاعتذار، أجل.هو قصد أن يصطدم بها، الأمر لا يحتاج تخمينات أو استنتاجات، ماذا يريد إذن؟، كل هذه الأسئلة الحائرة دارت في رأسها تبحث عن إجابة مقنعة تطمئن قلبها الذي يرتجف، بادلها نظرة عميقة عارية من التصنع لكنها تحمل رسائل كثيرة تودُّ لو تفضها وتفهم أسرارها، خبرتها عن تلون وجوه الآخرين عقيمة ساذجة تدفعها العاطفة فتحكم بمشاعرها، بعيدة عن العقلانية، لا تمتلك فِراسة لتدرك حقيقة باطنهم بالظن الصائب، لا تدرك أن العيون كثيرا ما تخدع، بريقها مزيف متلون يواري وتستتر خلفه حيلا

تظهـــــــــر عكـــــــــس مـــــــــا تـــــــــبطن.

نظرتـــــه العميقـــــة لـــــم تـــــدفعها أو تســـــتفزها لتعتـــــرض أو تنطـــــق بكلمـــــة، إنمـــــا كـــــان ردهـــــا أن تركتـــــه واســـــتكملت طريقهـــــا، تحـــــدق فـــــي ســـــاعة يـــــدها، تمـــــتم بكلمـــــات غيـــــر مســـــموعة، ســـــمعته يـــــأتي وراءها يترجاها:

-أرجوكِ، دقيقة فقط.

تجاذبتهـــــا عوامـــــل شـــــتى،فزادت مـــــن خطواتهـــــا تتلفـــــت حولهـــــا وكل ما في بالها:

-مـــــاذا لـــــو تـــــأخرت علـــــى طفليهـــــا، ومـــــاذا لـــــو رآهـــــا أحـــــد مـــــن جيرانهـــــا ؟مـــــاذا ســـــيقول لـــــو لمـــــح مطـــــاردة هـــــذا الشـــــخص لهـــــا ؟! هـــــل ســـــيتوقف الأمـــــر علـــــى مجـــــرد النظـــــرة ثـــــم ينصـــــرف أم ستصـــــبح ســـــيرتها تلـــــوك فـــــي أفـــــواه الســـــفهاء والشـــــامتين، ومـــــاذا ســـــيكون تصـــــرف زوجهـــــا لـــــو أخبـــــره أحـــــدهم بـــــأن زوجتـــــك تقـــــف مـــــــــع شـــــــــخص غريـــــــــب فـــــــــي الطريـــــــــق ؟! ماذا.وماذا.؟ كادت تختنق.

شـــــعرت بغصـــــة تحـــــرق جوفهـــــا تكـــــاد الـــــدموع تتســـــاقط مـــــن الخـــــوف والقلـــــق، لـــــم يمهلهـــــا أن تســـــتكمل طريقهـــــا بـــــل ســـــبقها ووقف أمامها قائلا:

ممكن أتحدث معك دقيقة؟!

فصاحت فيه قائلة:

-قطعا لا. لو سمحت ابتعد عن طريقي.

اندفعت غاضبة :

-دعك من هذه السخافات، فالأمر لا يحتملك.

رمقته بنظرة حادة وانطلقت في طريقها تسرع الخطى قبل أن يخرج طفلاها من المدرسة التفت خلفه يراها وهي تهرول، تتبعها عيناه بشدة وتركيز، يوشك أن يندفع، ليوقفها مرة أخرى.

في الجهة الأخرى كان صديقه ينتظره حينما لمحه رفع صوته يناديه:

-عصام، عصام .

لكنه لم ينتبه لمن ينادي، كانت عيناه وعقله مشغولين بهذا الطيف الذي أوشك أن يختفي أمام نظره.
لم يجد صديقه حلا إلا أن يذهب إليه، اقترب منه يهزّ كتفه ليخرجه من شروده، فانتبه له قائلا:

-أووووو يا سامح ما بك؟!.

-تقصد ما بي أنا ؟!وربي أنت غريب،أناديك منذ دقائق وأنت لست هنا.

-عذرا يا صديقي .

ضحك سامح قائلا:

-من هذه يا همام؟.

التفت إليه يحدق به:

-دعك من هذا هيّا لأنهي بعض إجراءات السفر.

-لـــن انصـــرف مـــن هنا.قـــال ســـامح مصـــرًّا.

واستكمل قائلا:

-أخبرنـــي أولا، لمـــاذا طلبـــت منـــي أن أنتظـــرك فـــي هـــذا الشـــارع؟!أيعقل أقطـــع هـــذه المســـافة الطويلـــة مـــن الســـيدة زينـــب لأنتظـــرك فـــي شـــارع مـــن شـــوارع مصـــر الجديـــدة.

صمت عصام لحظة يبحث عن رد مقنع فقال:

اعـــذرني كنـــت قريبًـــا مـــن هـــذا الشـــارع، خاصـــة مكـــان إنهـــاء إجـــــراءات الســـــفر قريـــــب مـــــن هنـــــا.

حـــدق بـــه صـــديقه بريبـــة، فـــرده لـــم يقنعـــه وقـــال بجديـــة:

-عصـــام مـــا بيننـــا لـــيس صـــداقة فحســـب، نحـــن جيـــران أكثـــر مـــن ثلاثـــــــــــين عامـــــــــــا.

ابتسم عصام يواري عينيه عنه وربت على كتفه قائلا:

-طبعا يا سامح، لماذا تقول هذا الكلام الآن؟.

-حالـــك اليـــوم لا يعجبنـــي، أرى تصـــرفاتك مريبـــة،فأنا صـــديقك أخبرني ؟ .

-لـــــــــيس الآن يـــــــــا ســـــــــامح، أرجـــــــــوك

أومأ سامح برأسه وصمت يحدق إلى صديقه.

-أرجوك يا سامح لا تحدق بي هكذا.

صمت لحظة ثم استطرد قائلا:

-صدقني لو أخبرتك بما أشعر به الآن ستقول عني مجنون!الأفضل لكَ ولي أن ننصرف الآن

-نعم مجنون لو صدق حدسي وتخميني.هل حدسي صحيح يا عصام؟!.

أومأ عصام برأسه ولم يرد.

-أنت مجنون قطعًا!، عصام ألا تزال تتذكر الماضي، غريب أمرك!، لم أتوقع حينما أخبرتك أنها تسكن في هذا الشارع، أن تكون هذه النتيجة، عصام أفق، أنسيت أنها متزوجة ؟.

-صدقني يا سامح لا أدري ماذا حدث لي صدقني، حينما رأيتها تطلّ من هذا الشارع، لم أشعر بنفسي إلا واندفعت اصطدم بها لألفت نظرها إليّ،استفززتها بكلامي لأجل أن أسمع صوتها،حينما فشلت في الصباح أن أسمعها ولو سبًّا، راقبتها بعيْنيّ ، ولما عرفت أنها لمحتني، اختبأت عن نظرها، أتابعها دون أن تشعر، ظللت واقفًا انتظرها كي أشبع عيني منها، كنت أظن أنني قوي وسأراقبها من بعيد دون أن تلمحني، لكن هيهات ما إن رأيتها مرة ثانية، اندفعت إليها، مصرًّا أن أغضبها، أحرك ملامحها لعل.
قاطعه سامح قائلا:أرى أن همومك أثرت على عقلك!.

حدق عصام به غاضبًا وصمت لحظة، كأنه تذكر شيئا،ثم قال:

-ربمـــا يـــا ســـامح، ربمـــا، هيـــا لا داعـــي لهـــذه الوقفـــة الآن ركـــب عصـــام ســـيارته مـــع صـــديقه ســـامح، ولا تـــزال عينـــاه مســـمرتين فـــي الأفـــق تبحـــث عنهـــا، لعلهـــا قادمـــة هنـــاك فيلقـــي عليهـــا النظـــرة الأخيـــرة قبـــل أن ينصـــرف.انتظر هنيهـــة يحـــرك مفاتيحـــه فـــي عصـــبية وتـــوتر، لكـــن يبـــدو أن الحـــظ لـــن يرافقـــه هـــذا المـــرة كمـــا حـــدث فـــي المـــرة الأولـــى والثانيـــة،ليس كـــل مـــا يتمنـــاه ســـيجده كمـــا كـــان يظن،انطلـــق بســـيارته تائهًـــا تتقاذفـــه أمنيـــات الماضـــي فينـــتفض قلبـــه،ليت العمـــر يعـــود بـــه لفعـــل مـــا كان يتمناه، ولن يستسلم سيدافع من أجله مهما كان.

(7)

أخذت يمنى تضرب كفًّا بكف مغتاظة من ذاك المتطفل الذي أوقفها في الطريق، وجدت طفليها يبكيان في فناء المدرسة يلتف حولهما مجموعة من المدرسين والمدرسات، فهرولت إليهم تفرك يديها من التوتر، تعلم أنها تأخرت وستتحمل عاقبة التأخير، وتعلم أيضًا أنها لن تسلم من كلمة هنا ونظرة هناك، لا أحد يعلم سبب تأخيرها، لكنهم مقتنعون أن تأخيرها إهمال منها تجاه ولديها، ليتهم يوفّرون كلماتهم اللاذعة ونظراتهم الساخرة، ويتركونها في حالها.

كما توقعت، حينما أخذت طفليها في حضنها تخفف عنهما الخوف والبكاء، نهرتها إحدى المعلمات بأسلوب حاد،ولأنها مسئولة عن دخول وخروج التلاميذ زادت الأوامر والتنبيهات، كأن النظر في وجه يمنى يدفع المعلمة أن تزيد من جرعة التأنيب والتوبيخ،اكتفت يمنى بالإيماءة، وسحبت طفليها قبل أن تنهار بالبكاء والصراخ، ليتها تصرخ لعلها تفجر هذا البركان الخامل الذي ينتظر اللحظة الحاسمة ليثور.

نعم...هي اعتادت أن تسمع وتطيع، أن تلبي الأوامر دون احتجاج، الإذعان والرضوخ احتل كيانها، لم يعد يهمّها كثيرا أن تعترض أو حتى تبدي نظرة امتعاض.ما الدافع لأن تعترض وهي التي عاشت منذ صغرها ساكنة وحيدة يتيمة لا أحد يهتم لأمرها ولا يقدر مشاعرها واحتياجاتها،

بل حال اليتيم أفضل منها، ما أصعب إحساس اليتم والوالدان على قيد الحياة!، وما أفظع إحساس القهر في سجن الزوجية!.

قبل أن تخرج من باب المدرسة تذكرت مرة أخرى ذاك الشخص الغريب فانتفض قلبها،يا إلهي ماذا أفعل ؟!اللهم اصرفه عني فأنت أعلم بحالي.
اهتدت إلى فكرة جاءتها في التو، أوقفت سيارة أجرة واستقلتها هي وطفلاها سريعًا، المسافة بين البناية التي تسكن فيها والمدرسة ليس بعيدة، إنما هذا هروب من مطاردة هذا الشخص، وبالفعل في دقيقة واحدة وصلت البناية، خرجت سريعا من السيارة تنطلق إلى باب البناية تمسك طفليها وجلة،فأوقفها السائق في تذمر قائلا:

-الأجرة ؟!.

توقفت، فأحمر وجهها خجلا وعادت إليه، أعطته الأجرة وانطلقت إلى شقتها تقبض على يد طفليها،أدخلتهما وأغلقت الباب بقوة، وقفت وراءه تتنهد بثقل كأن جبلًا ثقيلًا انزاح قليلا عن كتفيها، طلبت منهما أن يبدلا ملابسهما قبل أن تضع لهما الغداء، انطلقت إلى المطبخ تنهي طهي الطعام، تكاد تسقط من الإرهاق لا تشعر بقدميها اللتيْن تئنّان من التعب، دخل زوجها المطبخ قائلا:

-يمنى لو سمحت قدحًا من القهوة.

لم تنظر له واكتفت بأن أومأت في صمت، وضعت له قدح القهوة وأخبرته أن الغداء جاهز.

بعد مرور ساعة ، طلبت من ولديها أن ينهيا واجباتهما سريعا حتى تفتح لهما التلفاز فأسرعا يتسابقان من ينهي الواجب أولا، ابتسمت لمرحهما واتجهت إلى حاسوبها، تقرأ الجديد في العالم الافتراضي، تحاول أن تنال قسطا من الاحتواء الذاتي والتوغل في عالم القراءة، وتبتعد قليلا عن تلال الهموم والأحزان المتراكمة على أكتافها، وأثناء تصفحها لموقع التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) لمحت إعلانا عن دورة تدريبية للتنمية البشرية، شعرت برغبة قوية أن تضغط وتقرأ هذا الإعلان، ثم توقفت فجأة محاولة أن تفلت من تلك الرغبة الملحة تقول لنفسها:

-وما فائدة هذه الدورات التدريبية ؟كلها دورات نظرية لا تفيد بشيء.

بعد ساعة أخرى مضت وهي مندمجة في القراءة، لاح أمامها صورة ذاك الشخص ونظرته التي عجزت أن تفسر محتواها، شردت تفكر، من هذا الشخص ؟!وماذا يريد منها؟!منذ متى وهو يراقبها ويعرف مواعيد خروجها ؟!، أسئلة كثيرة تكاد تفتك برأسها لا تجد لها إجابة، امتغصت معدتها خوفًا، ماذا لو وجدته غدا ينتظرها ويصرّ أن يكلمها ؟!، كيف ستتصرف ؟!كلما حاولت أن تتملص من هذا التفكير، يعاودها بدافع أشد فيزيد قلقها.

لمحت الإعلان عن الدورة التدريبية ظهر أمامها مرة أخرى على موقع التواصل، فقالت لنفسها:إذن سأجرب

فمـــاذا سأخســـر !، إذا لـــم ترقنـــي، فلـــي أن أنســـحب!، هكـــذا أقنعـــت هـــاتف التـــوجس المصـــاحب لها،وقبـــل أن تضـــغط علـــى الإعلان رن هاتفها.

(8)

رنَّ هاتفها التفتت إليه، كان مركونًا بجوار الحاسوب، بدا عليها الاستغراب، الرقم غير مسجل في قائمة المسجلين على ذاكرة الهاتف، ليست معتادة أن ترد على رقم لا تعرفه، مدت شفتها السفلى تفكر، من يكون هذا المتصل؟! ولماذا هذا الإلحاح في الاتصال ؟!، فكلما يتوقف الرنين يعاود مرة أخرى، لم تجد من بد إلا أن تفتح الاتصال وترد:

-السلام عليكم

-وعليكم السلام، كما توقعت يا يمنى، من الصعب أن تردي على رقم غريب!.

-أحلام ؟!.

-نعم أحلام يا جاحدة، منذ أسبوعين لم أسمع صوتك.
-اعذريني يا صديقة، ليس بإرادتي والله، تعلمين مشاغل الحياة، ألتمس العفو هذه المرة.

-عفوت عنك، لكن لو تكررت سيكون لك حسابًا آخر.(وضحكت).

-اشتقت لك يا أحلام (قالتها بحزن) يمنى ما بك؟!، صوتك ليس على ما يرام!.

-أشعر باختناق، وأريد أن أقابلك لأفضفض معك.

-تعالي يا حبيبتي انتظرك.

-ليس اليوم، سأستأذن شوقي أولا ثم أتصل بك، أهذا رقمك الجديد؟!.

-أجل.الرقم القديم أعياني معاكسات وسخفات، فاقترح زوجي أن أغير الشريحة، وأنت أول من اتصلت بها لأخبرك برقمي الجديد، رجاء سجليه عندك.

-حسنا، سأسجله.

-سأنتظر اتصالك، لا تتأخري علي.في أمان الله.

-في أمان الله يا صديقة.

أغلقت يمنى الهاتف وشردت تتذكر اليوم الذي تعرفت على صديقتها أحلام، حقا يوم لا ينسى من شريط ذكرياتها، ما زالت تؤمن أن لكل شيء سبب، فظهور أناس في حياتها أو اختفاء بعضهم، له حكم وأسباب، الأمور تسير بحسبان وقدر، مهما حاول الإنسان أن يهرب من قدره فهو ملاحقه، ولن يأخذ إلا نصيبه، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له.

ظهور أحلام في مشوار حياتها منذ خمس سنوات لم يكن أمرًا عاديا أو متوقعًا، بل المصادفة لعبت الدور الحيوي في هذه الصداقة، كان يوما شاقا منذ البداية، منذ أن خرجت من البيت في الساعة العاشرة صباحا لتتسوق، تحمل طفلها الرضيع على كتفها و تقبض على يد الثاني، تسرع

كعادتها، ترتدي عباءة سوداء وحجابًا سماويًّا،غير منتبهة إلا للطريق الذي تسير فيه، في طريقها للسوق، لمحت محلا جديدا يعرض ملابس أطفال تلفت الأنظار، فوقفت تحدق إلى الملابس المعروضة، منبهرة بجمالها وألوانها الجذابة، تنقل عينيها من هذا السروال إلى ذاك القميص الصغير الممتزج الألوان تتحسس ملمسهما بابتسامة هادئة، تهمس في نفسها:هذا مناسب لإيهاب المشاغب الصغير، أما هذا القميص القطني الأصفر رائع، حقا مناسب لأمجد، خفضت عينيها لتلقي على ابنها نظرة سريعة، فجأة لم تجد الطفل، ذهلت، تحدق إلى يدها، لا تصدق ما تراه، صرخت بأعلى صوتها تنادي عليه، تتلفت يمنة ويسرة كالمجنونة، تكاد يغشى عليها، فقدت التفكير تماما لا تدري من أي جهة تبحث عنه ؟!تكاد تجن كيف تحرر من يدها هكذا وهي طوال الطريق تمسكه بإحكام خشية هذا الموقف اللعين الذي تعرضت له الآن، كيف تتصرف إذن؟!.

مهما حاولت أن تتخيل هذه اللحظة لن تكن بمثل معايشتها الآن، دومًا نظن أننا لو وضعنا في اللحظة التي نتخيلها وكانت واقعًا سنفعل ونفعل، لا نتوقع أن من يقبض على النار ليس كمن يراها!.

ما توقعت يوما أن يصبح الخوف من هذه الشعور المسيطر عليها دائما حينما تخرج من البيت برفقة طفليها، حقيقة تراها أمام عينيها الآن،لن يرحمها زوجها لو حدث للطفل مكروه سيحمّلها كل العواقب، تخيلت كل السيناريوهات

المتوقعة منه، سيحاكمها بتهمة الإهمال، سيقتلها ويمزقها قطعا، قطعا، نعم سيقتلها ولن يغفر لها.

كل هذا دار في عقلها في أقل من ثوانٍ ، انطلقت تبحث في أركان المحل كالمعتوهة، تصرخ ثكلى تحمل طفلها الرضيع وتضغط عليه بكلتَي يديها، خرجت من المحل تنادي على طفلها بصوت متحشرج، يوجع القلوب، غير مبالية لنظرات الآخرين ولا لكلماتهم المتسائلة، عن ماذا حدث ؟!.

جرت جهة اليمين تتخبط بشكل عشوائي، تبحث بعينيها داخل المحلات المتراصة على جوانب الشارع، تتمنى لو تلمح لون ثوب ابنها، لتعود لها الحياة التي تتسرب من بين جوانبها الآن.

من يراها بهذا الشكل لا يجد أمامه إلا أن يرمقها بنظرة الشفقة، ويتطوّع أن يبحث معها، رفقا بحال هذه الأم المكلومة على فلذة كبدها.

مرت نصف ساعة وهي تجري تبحث هنا وهناك، يمنة ويسرة، يكاد قلبها يخرج من بين ضلوعها، تعثرت قدمها فكادت أن تسقط على الأرض، فإذا بيد أحدهم تلتقطها قبل أن ترتطم وأجلسها على كرسي داخل محل من المحلات، هو وضع جثة تلفظ أنفاسها الأخيرة تلهث من شدة التعب والتفكير، ارتخت يداها بجوارها ورضيعها نائم على قدميها، تتساقط دموعها، عاجزة أن تصرخ، بل فاقدة النطق تماما، سلمت أمرها لباريها، فلجّ لسانها بالدعاء

والاستغفار، توهم نفسها أنه كابوس وستفيق منه الآن؟!
أحضرت لها سيدة مسنة كوبا من الماء وظلت تربت على كتفها حتى تهدئ من روعها، ورعشة أطرافها، وإذا بها تسمع أصواتًا وضجيجًا يأتي من خارج المحل، حشد من الناس يسرع إليها يلتفون حول المحل تتقدمهم سيدة في الثلاثين وفي يدها الطفل الصغير (أمجد) جرى الطفل يرتمي في حضن أمه وهو ينتحب ويشهق، لم تستطع أن تقف على قدميها، ظلت جالسة تحضن طفليها وتبكي.
أهي دموع الفرحة، فابنها الآن في أحضانها أم عبرات الإعياء والألم الذي تشعر به ؟
هرولت السيدة التي وجدت الطفل تثبتها قبل أن ترتطم بالأرض وتسقط مغشيا عليها، أخذت زجاجة عطر من حقيبتها ومررته جنب أنفها، كي تستعيد وعيها.
بعد دقائق، سألتها السيدة:

-أأنتِ بخير الآن؟!أم نستقل سيارة للمستشفى؟!.

أومأت يمنى في ثقل وقالت:

-الحمد لله، بخير.

ابتسمت السيدة قائلة:

-أنا أحلام وأنتِ؟!.

-يمنى .

-الله، اسمك جميل جدًّا .

ابتسمت يمنى تخفي ألمها ولم ترد.

أمسكتها أحلام قائلة:

-هيا كي أوصلك إلى بيتك !.

حاولت يمنى أن تقف فلم تقدر، أخذت أحلام الطفل الرضيع عنها قائلة:

-ضعي يدك على كتفي وأنا سأحمل الرضيع وأيضًا سأمسك هذا الصغير.

انتفضت يمنى واندفعت قائلة:

-لا.سأمسكه أنا، أنا السبب فيما حدث.،أخذت تشهق كطفلة صغيرة ترتجف من الخوف.

أخذتها أحلام في حضنها وقالت لها:

-هيا يا يمنى هيا. الناس تنظر إلينا.

تحملت يمنى ونهضت عن الكرسي، تسير بثقل وإعياء، أوقفت أحلام سيارة أجرة وأشارت ليمنى أن تخبره بمكان بيتها.

بعد دقائق قليلة كانت يمنى مع أحلام في شقتها تسألها كيف عثرت على أمجد ؟!.

ضحكت أحلام بعفوية قائلة:

-ابنك يا سيدتي كان أمام عينيك ولكن ارتباكك أعشى الرؤية أمامك، فلم تنتبهي لوجوده داخل محل الألعاب. حدقت يمنى بها لا تصدق، أومأت أحلام برأسها واستطردت:

-أمجد كان يلعب مع أطفال في المحل الذي أمام محل الملابس الذي كنت فيه، وعندما انصرف الأطفال مع أمهاتهم، انتبه أمجد أنه وحيد وأنك لست أمامه كما ظن، فانهار في البكاء ينادي عليك بصوت عالٍ، فظن الآخرون أنه الطفل التائه ابن السيدة التي ملأت الشارع صراخا وعويلا.

طأطأت يمنى رأسها خجلا ولم ترد.

ربتت أحلام على كتفها وابتسمت قائلة:

-لو كنت مكانك لفعلت أكثر مما فعلت وضحكت ودعتها أحلام وقبل أن تنصرف نبهتها أن تؤكد على طفلها ألا يخبر أباه بما حدث، فربما تحدث مشكلة كبيرة من وراء هذا، وتتوالى وراءها قرارات تعسرية استبدادية، تنفذ دون تعليق أو اعتراض،قطعا هي لا تحتاج أن تنبهها، فالأمر محسوم عندها، وهي الأدرى بما سيفعله زوجها إذا علم.

ومنذ هذا اليوم صارت أحلام صديقة يمنى بل توطدت العلاقة بينما وأصبحت أختا لها، تفضفض إليها إذا، طفح الكيل، وانتابها شعور الاختناق، أحلام كانت تسمع منها

وتسدي لها بالنصائح لكي تتحمل وتصبر، علمت عنها كل شيء، وعاشت معها بأحاسيسها كل همومها وأحزانها، فكثيرًا ما دعت لها وأحيانا ما دعت على هذا الزوج المتغطرس الأناني.

أفاقت يمنى من شرودها على صوت ابنها أمجد يناديها، أغلقت الحاسوب والتفتت إليهما.
تعلق الاثنان بيديها، يقفزان في مرح يطلبان منها أن تحكي لهما قصة قبل النوم.
أذعنت لقرارهما وأخذتهما في حضنها، شرعت تحكي قصة من قصصها المشوقة، ثقلت جفونها فاستسلمت لسلطان النوم، ثم غاصت في سبات عميق.ابتسم الطفلان وكل واحد يتدثر في الغطاء وينكمش في حضنها، ناداها زوجها، فلم يجد تلبية، نهض عن كرسي المكتب في غرفة صغيرة بجوار غرفة النوم، باحثًا عنها، فتح باب غرفة الأطفال فوجدها تغطّ في نوم عميق، مدّ شفته السفلى تضايقا، ألقى عليها نظرة باردة وأغلق الباب، ظلّ يتمتم متوعدًا ويكنُّ لها المزيد.

(9)

زوجها كان يحكم على نتائج الأمور برؤيته هو، بتقديراته وحساباته الخاصة، كان يكره أن يعتذر ويعده ضعفا، لابد أن يتحرر منه الرجل سواء أن أخطأ أم لم يخطئ، هو الرجل مهما فعل، ومهما ارتكب من أخطاء، كبرياء الرجل وشموخه لا يمكن أن يهتزّ أمام عقلية المرأة الضعيفة، التي ما أن تستشعر ضعف الرجل ورضوخه لطلباتها تتسلط عليه، ويسير في يدها مثل دمية تعتني بها وقت الغرض.لهذا ظل شوقي واقفا أمام غرفة الأطفال مترددا، هل يفتح الباب مرة أخرى ليوقظها لأجل أن تصنع له العشاء؟، تأفف غاضبا،وظل صامتا لبضع دقائق مستندا على الحائط، ثم تلفت حوله يبحث عن هاتفه، فكر بأنه قد وضعه بجوار ملفاته على المكتب، اتجه إلى هناك، وبالفعل وجدته، التقطه وقفل عائدا إلى غرفة نومه، تمدد على سريره وأمسك هاتفه يبحث في ذاكرته، ضغط على مفتاح الاتصال وانتظر تعلو وجهه ابتسامة خبيثة ما أن تحولت إلى صوت رقيق:

-مساء الخير ماجي.

بادلته بضحكة خنوع:

-قل صباح الخير، ألا تشعر بالوقت إذن.

-ماذا تفعلين الآن؟!.

-ليس شأنك أيها المتطفل،ألم أقل لك لا تسأل كثيرًا!.

-كفي أيتها الجميلة، لا تخاطبيني بهذه الطريقة بعد الآن.

-وماذا تريد أن أحدثك إذن؟!.

-لقد تغيرتِ كثيرا ماجي، أنسيت ما كان بيننا؟! العجب أنك لا تدرك ماذا فعلت في حقي تلك الحقيرة التي تسمى زوجتك؟!.

-ماجي!!ألا تزالين تتذكرين ما حدث؟!.

-أليس لي كرامة عندك؟!.

-بل لك مكانة في القلب!.

-فلتأخذ لي حقي من هذه المرأة التي أهانتني في بيتك بعد كل الذي فعلته من أجلك!.

-ماجي فليكن قلبك رحيما، وسينتقم الله ممن أهانك!.

-يا جاحد الجميل، أنسيت ما فعلته لك، من وقف بجوارك في العمل، وكان سندك، ألست أنا سبب ارتقائك لهذه المكانة المرموقة في الشركة.

-طبعا يا سيدتي الجميلة، الفضل كله لكِ طبعا كله لي، لولا شفاعتي عند مدير الشركة ما أصبحت أنت مدير حساباته والمسئول عن الأمور الإدارية!.

-لا داعي لهذا الكلام الآن سيدتي،صاحبة القلب الطيب.

أسمعتُه قهقهة أشعلت الحرارة في جسمه، فانتفض قلبه يرتجف، رق صوته أشد يكاد لا يسمع:

-أرجوك سيدتي رفقا بي، ما عدت أتحمل هذا الدلال،ولا هذه الضحكات الرنانة.

-حلمك أيها الرجل، ألا تسمعك زوجتك مثلها؟!.

-أتسألين وأنت الأدرى بحالي!.

-ما عدت تهمّني الآن يا شوقي، بعدما طردت من بيتك، زوجك المصون قالت لي...اخرجي من بيتي، لا أريدك أن تدنسيه! هذه المرأة المتخلفة تظن أن بيني وبينك شيئا،لا تقدر معنى الصداقة ؟!.

-أنت يا ماجي من نسيت ماذا فعلت، أشبعتها ضربًا، حتى أجبرتها أن تتصل بك لتعتذر، وطلبت منك أن تأتي لزيارتنا مرة أخرى.

في هذه اللحظة استيقظت يمنى تتلفت حولها:

-يا إلهي لقد غلبني النوم دون أن أشعر، يبدو أنني مرهقة فلم أدرِ بغفوتي.

نهضت عن السرير تدثر أولادها في الغطاء جيدا واتجهت إلى غرفة النوم، وقبل أن تفتح بابها سمعت اسم ماجي يرنُّ في الغرفة، وضحكاته المستفزة تملأ المكان.

وقفت متوارية في زاوية معتمة بعينين تلمعان بالدموع، وفم نصف مفتوح، يشدّها الفضول أن تسترق السمع و تنصت لما يقال، كبرياء أنثى يستعر داخلها، تود لو تقتحم الغرفة وتقبض على رقبته لتثأر لقلبها المجروح، لا.لكرامتها كزوجة، هي عاجزة، نعم ضعيفة أن تفعل هذا، لم تعد تتحمل إهانته لها، وضربه المبرّح يترك أثرًا على جسمها الضئيل أمام جسده المترهل فكان الصمت سبيلها الوحيد أن تتحمل هذا الزوج، تذكرت حينما سألته مرة بعد إنجابها الطفل الأول بدافع إحساس الزوجة التي تتمنى رضا زوجها وتسعد ببعض كلماته الغزلية الرقيقة ليرق قلبها له،تحاول أن تعلم مكانتها عنده رغم أن أفعاله معها ونظراته لا تحتاج أي استنتاج أو خداع، لكن التوهم أحيانا رحمة للصابر المحتسب،والتغافل عن الحقيقة مسكن يخدر النفس لأجل أن تواصل وتتأقلم مع الحياة، فإقناع النفس عكس ما ترى حقيقة عاشتها هذه الزوجة لتعطي لعقلها مبررا لاستكمال الحياة مع هذا الزوج، ربما الهروب من الحقائق يسكّن خلجات النفس حينا، لكنه ليس دائما سيدوم مفعوله، كانت تتمنى لو يخدعها ويقول عكس ما يفعل من باب جبر الخاطر والتنازل عن غطرسته ولو للحظات، ليتها لم تسأله، وفضلت الصمت مثل كل مرة، حاولت أن تصنع لنفسها جسورًا من الوهم، تعيش داخلها كأنها زوجة تحيا حياة هادئة وإن كانت صامتة جافة كما يراهما الآخرون ، في هذه المرة سألته:

-أنت سعيد معي؟!.

أجابها بكل برود وغطرسة:

-لا أفهم ما تعنيه ؟!.

أعادت السؤال بصياغة مختلفة مع قلب ينتفض ولسان متلعثم:

-هـــــل أنـــــا الزوجـــــة التـــــي كنـــــت تتمناهـــــا؟!
ربما...ربما هذه مع نظرتك الباردة تبوح أنك غير سعيد معي؟!.

-يمنـــى، لـــو ســـمحتِ لا داعـــي لهـــذا الكـــلام، دعينـــا نعـــيش ســـويا دون مشاكل.

-لك أن تتزوج أخرى لتجد سعادتك.

-هذا ما أفكر فيه.

شـــعرت بـــدوار خفيـــف مـــع امتعـــاض فـــي معـــدتها لكنهـــا لـــم تبـــك، كتمـــت دموعهـــا وتحولـــت بعـــدها إلـــى حالـــة فتـــور ولا مبـــالاة بـــأي تصـــرف منـــه محـــاولا إهانتهـــا أو احتقارهـــا، ذبـــح بكلماتـــه تلـــك الأنثـــى الرقيقـــة التـــي تحتـــاج مـــن يهـــتم بهـــا لتتفـــتح كأزهـــار الربيـــع، طعـــن هـــذا القلـــب الأخضـــر الـــذي لـــم ينـــبض لأي رجـــل قبلـــه،يا لهـــا مـــن طعنـــة حينمـــا تأتـــــــــي مـــــــــن أقـــــــــرب النـــــــــاس!
تتمنـــى لـــو تعـــض بنـــان النـــدم، ومـــاذا ينفـــع النـــدم الآن؟!
وهـــي مـــن عاشـــت تكـــره أي لحظـــة أســـف وتحســـر، كـــل خطـــوة تخطوهـــا كانـــت تخشـــاها،ترعبها، تفكـــر قبـــل فعلهـــا خشـــية شـــعور النـــدم تنـــأي بنفســـها عـــن مخاطرها،تتجنـــب عواقبهـــا،إلا تلـــك اللحظـــة التـــي وافقـــت أن تكـــون زوجـــة لـــه،لم تعـــطِ لعقلهـــا فرصـــة التفكيـــر والتريث،انســـاقت وراء قلبهـــا الســـاذج المغـــرر بمعســـول كلامـــه.
أفاقـــت مـــن شـــرودها، وداخلهـــا غليـــان الآن تـــزداد حرارتـــه، وهـــي تســـمعه يحـــدث هـــذه المـــرأة، طريقتـــه فـــي الحـــديث اســـتفزت

مشـــاعرها، مـــا هـــذه الرقـــة والحنـــان واللطـــف ؟!، ألـــيس مـــن حقهـــا أن تحظـــى ولـــو بـــبعض مـــن هـــذا ؟!، مـــا عـــادت تطيـــق أكثـــر، فلـــيكن مـــا يكـــون ولتتحمـــل نتيجـــة تصـــرفها هـــذا، فـــي حومـــة صـــراع بـــين الكبريـــاء والخوف،يتبـــارزان بضـــراوة، ويتنازعـــان نتيجـــة الحســـم، إذا بهـــا تنـــدفع وتفـــتح البـــاب تنظـــر إليـــه نظـــرة ســـخرية وغـــيظ، فـــانتفض واقفًـــا لا يصـــدق هـــذه الهجمـــة الشرســـة مـــن تلـــك الوديعـــة الصامتة.

(10)

حدق بها مندهشًا وهو يغلق الهاتف الذي سقط من يديه، لم يتوقع هذا التمرد منها، ولم يتخيله إن يحدث يومًا، يغالبه شعور بالحيرة والتساؤل:

-أسمعتْ حديثي في الهاتف؟!، ولهذا خرجت من خدر الصمت ثائرة، هذا ما أظنه، من الصعب على قطة وديعة مثلها أن تهاجم وتبدي غضبها، أفزعتها نظرته الحادة وأسكنت حركاتها، فارتجف قلبها خوفا من ردة فعله، تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها. ولأنه الطرف الأقوى المسيطر على زمام الأمور، بدأ بالهجوم مقررًا مباغتتها قبل استكمال انتفاضتها التي من المتوقع أن تتحول لثورة هادرة تكون نتيجتها أن تتبجح فيه وتسلط لسانها، وتتلذذ متباهية بنشوة إحراجه وإضعاف نقاط قوته،لابد من كسرها ونزع شوكتها قبل أن تسوّل لها نفسها أن تكسر هيبتي كرجل، سواء بنظرة وقحة أو كلمة تلقيها باستغباء وهي تدرك معناها جيدا، حك أنيابه حنقًا وغيظًا، فأحرج صدرها ضيقًا،تكاد لا تتنفس، دبت عقاربه فسألها بنظرة أشد حدة:

-ما بك؟، ألدغك ثعبان أم ماذا؟!،اخرجي وأطرقي على الباب مرة أخرى وتعلمي آداب الاستئذان أولا.

نظرت إليه في قلق ولم تتحرك، صاح فيها:

-قلـــــت لـــــك اخرجـــــي ودقـــــي علـــــى البـــــاب.

خرجـــت مـــذعورة ترتجـــف مـــن صـــوته، وأغلقـــت البـــاب أمامهـــا، وقفـــت تجمـــع قواهـــا ثانيـــة ثـــم دقـــت البـــاب،فلم يهـــتم لهـــا، أعـــادت الطـــرق مـــرات فتعمـــد إهانتهـــا ولـــم يســـمح لهـــا بالدخول،وبعـــد بضع دقائق مهينة قال ساخرًا:

-ادخلي.

فتحـــت البـــاب تكـــاد تمـــوت غيظًـــا مـــن غطرســـة هـــذا الكـــائن، نظـــر إليها في ضيق:

-أغلقي مصباح الإضاءة، أريد أن أنام.

-أريـــد أن أتحـــدث معـــك قلـــيلا !(قالتهـــا فـــي غضـــب مســـتتر).

أدار ظهره لها ووضع رأسه تحت الوسادة:

-ليس وقته الآن، هيا أغلقي المصباح هيا.

فركـــت يـــديها تـــوترا تشـــتعل نـــار الغضـــب داخلهـــا لا تطيـــق أن تتحمل هذه الإهانة وتلك المعاملة السيئة، فصاحت:

-بل الآن!

انتفض عن السرير وأمسك ذراعها بشدة، يدفعها بعيدا:

-مـــا هـــذا التعنـــت؟!، قلـــت لـــك أريـــد أن أنـــام ألا تفهمـــين؟! أغربي عن وجهي الآن.

بكـــت واختنقـــت بالـــدموع تشـــهق، لا تقـــدر أن تخـــرج الكلمـــات من حلقها، فقالت مندفعة:

-لمـــــــاذا تعـــــاملني هكـــــذا ؟ مـــــــاذا فعلـــــت لـــــــك؟!

،حسبي الله ونعم الوكيل.

استفزته عبارتها، فشدها إليه بقوة:

-إذن لن تصمتي!.

صـــك وجههـــا بقـــوة، وانهـــال عليهـــا بالضـــرب وقبـــل أن يـــدفعها لخارج الغرفة أجابها:

-لأنك غبية، ولا تفهمين!.

-ولماذا تتزوج امرأة غبية؟!.

-اســـألي نفســـكِ، ثـــم أننـــي لـــم أضـــربك علـــى يـــدك لكـــي تتزوجيني!.

دفعهـــا خارجًـــا وأغلـــق البـــاب بالمفتـــاح، وضـــعت يـــديها علـــى الجـــدار لتحتمـــي بهمـــا قبـــل أن تـــرتطم فيـــه، وقفـــت تنتحـــب وتشـــهق كطفلـــة يتيمـــة مـــات كـــل أهلهـــا ولـــم يعـــد لهـــا أحـــد، ضـــمت ذراعيهـــا بقـــوة تهـــدئ ارتعاشـــها، وارتجـــاف أطرافهـــا، فسمعته يتأفف ويصيح:

-كفـــى دمـــوع التماســـيح هـــذه، ابكـــي بعيـــدًا عـــن هنـــا، أريـــد أن أنام.

كتمـــت شـــهقتها ومســـحت دموعهـــا، اتجهـــت إلـــى الحمـــام لتتوضـــأ، مـــا أن أنهـــت وضـــوءها، فرشـــت ســـجادتها وأخـــذت تبكـــي فـــي الصـــلاة بخضـــوع وخشـــوع، تـــدعو الله أن يخفـــف

عنهـــا هـــذا الـــبلاء، حتـــى نامـــت مكانهـــا منهكـــة، لا تشـــعر ببـــرودة الجـــو حولهـــا، نامـــت فـــي هـــذا الجـــو القـــارس حتـــى وصـــلت قســـوته للمشـــاعر والأحاســـيس، ومـــا أصـــعبه!حينما تتوغـــل بـــرودة العاطفـــة داخـــل القلـــب فتجمـــده حتـــى المـــوت. مضـــت بضـــع ســـاعات وهـــي مســـتلقية علـــى الســـجادة نائمـــة كقطـــة ضـــالة ملقـــاة علـــى قارعـــة الطريـــق، حتـــى أيقظتهـــا بـــرودة الجـــو تـــرتعش، نهضـــت ســـريعا إلـــى غرفـــة طفليهـــا وتـــدثرت بالغطـــاء، كانـــت ترتجـــف كالريشـــة، فترتعـــد مفاصـــلها محدثـــة أســـنانها صـــريرا عاليـــا، مـــرت عليهـــا نصـــف ســـاعة علـــى هـــذا الحال، حتى شعر بها طفلاها ففزع يصيحان:

-ما بك يا أمي؟!.

قالت بصوت منخفض يستغيث:

-أمجد هات الغطاء الذي يوجد في درج الدولاب بسرعة.

أســـرع أمجـــد وإيهـــاب وأخرجـــا الغطـــاء ووضـــعاه علـــى الأغطيـــة المتراكمـــة علـــى جســـد هـــذه المســـكينة، مـــرت ســـاعة، ويمنـــى تغـــطّ فـــي نـــوم عميـــق لا تـــدري بـــأي شـــيء يـــدور حولهـــا، تـــئن مـــن مـــرض قـــاب قوســـين منهـــا، أوشـــك واقتـــرب ليحتـــل جســـدها. فـــي أثنـــاء ضـــجيج الطفلـــين فـــي المطـــبخ، اســـتيقظ والـــدهما وخـــرج يتثـــاءب، يفـــرك عينيـــه متجهـــا إلـــى الحمـــام يحمـــل منشـــفته، فاســـتوقفه وجـــود الطفلـــين فـــي المطـــبخ يصـــنعان بعض الشطائر، حدق إليهما قائلا:

-أين أمكما ؟!.

اندفع الاثنان يقولان:

-أمي نائمة.

تأفف واقتضب جبينه:

-بدأ مكر النساء، هذا يوم غمّ من أوله!.

خرج من الحمام يجفف رأسه وفرش سجادته ليصلي الصبح، بعد قليل فتح باب غرفة طفليه،فوجدها متدثرة في الغطاء حتى رأسها تئن وتنتحب، فألقى عليها نظرة باردة وانصرف، ارتدى ملابسه وأخذ هاتفه ومفاتيح سيارته وقبل أن يخرج، قال:

-أمجد، إيهاب، إذا حدث أي ضجيج أو تكسير لشيء في البيت، لن ترحما مني، أفهمتما؟!.

أومأ الاثنان برأسهما في خوف ولم يردا، استوقفه إيهاب سائلا:

-هل سنذهب للمدرسة اليوم؟!.

نظر إليه وصمت،أغلق الباب خلفه دون أي رد، متجها للعمل، أسرع الطفلان لغرفتهما، فنادتهما:

-أمجد، إيهاب .

-نعم يا أمي.

-هـــات الهـــاتف يـــا أمجـــد واتصـــل بخالتـــك أحـــلام وأخبرهـــا أننـــي مريضة وأحتاجها الآن.

أســـرع أمجـــد وأمســـك الهـــاتف، وبالفعـــل اتصـــل بـــأحلام، بعـــد دقـــائق معـــدودة كانـــت تـــرن جـــرس البـــاب، أســـرع أمجـــد وفـــتح لها ، فأخذته في حضنها وقبلته:

-أين يمنى؟!قالتها في قلق.

-أمي نائمة في غرفتنا.

أسرعت أحلام للغرفة فتحت بابها وهي تقول:

-يمنى حبيبتي ما بك؟!.

جلســـت بجوارهـــا علـــى الســـرير تضـــع رأســـها فـــي حضـــنها، بكـــت يمنـــى تتســـاقط دموعهـــا بغـــزارة ولـــم تـــرد. حرارتـــك مرتفعـــة جـــدا، هيـــا بنـــا إلـــى الطبيـــب. لا أرجـــوك، لـــو علـــم شـــوقي أننـــي خرجـــت دون إذنه،ســـتحدث مشـــــــــــاكل كثيـــــــــــرة.

-هل حدث بينكما شجار بالأمس؟!.

صمتت يمنى ولم ترد ، استطردت أحلام قائلة:

-أرى أصـــابع كفـــه علـــى وجهـــك، حســـبي الله ونعـــم الوكيـــل. أســـتأذنك دقـــائق، ســـأذهب أشـــتري لـــك دواء خافضًـــا للحـــرارة من الجوارأسرعي، أرجوك.

أخذت أحلام حقيبتها كي تحضر الدواء وبعد دقائق أخرى كانت معها علب دواء كثيرة لعلاج نزلات البرد والحمى، اتجهت إلى المطبخ وصنعت بعض الشطائر مع كوب من الماء،فتحت باب الغرفة تبتسم بهدوء:

-حبيبتي هيا لكي تفطري أولا، قبل أخذ الدواء،هيا.

-صدقا لا أقدر، أشعر بصداع يفتك برأسي. قطعا يمنى، الجو أمس كان شديد البرودة،وربما انزاح عنك الغطاء.

-نمت من غير غطاء أمس.

-يا إلهي، لمَ ؟!

-لقد ضربني وطردني خارج الغرفة.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، إنه بلاء من الله فلتصبري وتحتسبي، يا حبيبتي، أعانك الله، لكن حياتك أفضل من نساء كثر، فلو أخذت موفقا منه، إلى من ستذهبين؟ فأنت أعلم أن أمك وأباك كليهما مشغولان بحياتهما مع أولادهما، وجدتك امرأة مسنة، لن تقدر على تحمل مسئولية طفلين لو قررت العمل، حتى العمل نفسه ليس سهلا، كله متاعب وسخافات وخاصة لامرأة مثلك، تمر بتلك الظروف، وأنت لست حمل هذا ولا ذاك.
قالت يمنى في استسلام:

-أعلم هذا جيدا، ادعي لي بالله عليك يا أحلام.

جلست أحلام بجوارها وقالت:

-تعرفين؟ لي صديقة تزوجت ستة أشهر فقط، زوجها من أول يوم نائم في البيت وأهله من يتولون الإنفاق عليه وعليها،، وحينما ملت من هذه الحياة الذليلة، ونظرات أهله التي تحمل الإهانات، وخلاف كلمات الهمز واللمز، قررت أن تنفصل رغم أنها تحمل في أحشائها جنينا ليس له أي ذنب، ليتها وجدت من تحملها، وعوضها في بيت أهلها،بل وسمت بلقب مطلقة، ويا ويله من لقب!

نهضت وتغيرت نبرة صوتها مستطردة:حبيبتي فلتحمدي الله أن زوجك ينفق عليكم، ولا يحرم طفليه من أي شيء،وكل شيء بعد هذا يهون، تجنبي الحديث معه قدر المستطاع،ونفذي طلبه دون صوت ولا اعتراض، اتفقنا؟!

طأطأت يمنى رأسها في استسلام:

-لله المشتكى.

أرادت أحلام تغيير دفة الحزن فضحكت قائلة:تتذكرين ليلى صديقتنا في موقع التواصل (الفيس بوك).

حدقت إليها يمنى وقالت:

-ما بها!.

وأخذت قرصا من الدواء ووضعته في فمها وشربت قليلا من الماء.

-زوجها تزوج بامرأة أخرى!

-يـــا ربـــي، أيعقـــل هـــذا!، ليلـــى امـــرأة جميلـــة،ولا تقصـــر فـــي واجباتها.

ضحكت أحلام ساخرة:

-أجـــل جميلـــة، لكـــن لـــيس جمـــال نجمـــات الســـينما كمـــا يريـــد زوجها.

ابتسمت يمنى رغما عنها وقالت:

-هم يبكي وهم يضحك.

ابتســـمت أحلام:أخيـــرا يـــا حبيبتـــي، تـــذكري صـــحتك، واتركـــي الأحزان وراء ظهرك، لن يأتي من ورائها إلا المرض.

أومأت يمنى برأسها في استسلام وقالت بحزن:

-لا يزال يحدث ماجدة، وينابيها بماجي.

وبوجه علته الدهشة قالت أحلام:

-أشك أن زوجك عنده إحساس أو خجل!.

قالت يمنى غاضبة:

-بعـــدما أدخلهـــا بيتـــي وأوصـــاني عليهـــا، أنهـــا امـــرأة مســـكينة، أهـــل زوجهـــا يعاملونهـــا معاملـــة ســـيئة، ويتصـــيدون لهـــا الأخطـــاء، ونصـــحني أن اهـــتم بهـــا، وأجعلهـــا صـــديقتي، وبســـذاجتي كنـــت أحكـــي لهـــا كـــل أســـراري، اكتشـــفت أن المســـكينة ترتـــدي قناعًـــا تخفـــي وراءه ســـم عقـــرب حقـــودة،

كانت أمامي تذمّ في زوجي، وبعد مدة اكتشفت أنها تنقل له أخباري بطريقة تشكيك، وتلفيق بالتقصير والإهمال، حقيرة،وضيعة، منذ أول يوم ونظراتها ليست مريحة، آخر مرة كانت تضحك بطريقة مستفزة، غير ملابسها المثيرة،أحسست بنار تحرق داخلي، تدفعني لأن أطردها.

قاطعتها أحلام قائلة:

-يتحدث مع ماجي أو غيرها!هذا شأنه، اتركيه، فالله المنتقم، ولتحيي لأولادك فقط.

تركتها أحلام واندفعت إلى المطبخ، أحضرت بعض العصائر وأعطتها للطفلين، واتجهت مرة أخرى تغسل بعض الأطباق، نظمت الغرف، وذهبت ليمنى مرة أخرى ,وجدتها نائمة، أنهكتها الحمى، فاستسلمت للنوم، ألقت عليها نظرة سريعة وقبل أن تغلق الباب، نادتها يمنى:

-أحلام.

اقتربت منها:

-نعم.

-اذهبي لبيتك وأولادك،الحمد لله، أصبحت الآن أفضل، أمهليني قليلا من الوقت أنهي فقط عمل الغداء.

-الله يحفظك، ويجعله في ميزان حسناتك.

-آمين يا رب العالمين

قبلتها أحلام وقبل أن تنصرف قالت:

-سأتصـــــل بـــــك ليلا،لكـــــي أطمـــــئن عليـــــك.

أومأت يمنى برأسها وابتسمت:

-لا تقلقـــي ســـأكون بخيـــر إن شـــاء الله، ليســـت هـــذه أول مـــرة أمرض.

بادلتهـــا أحـــلام ابتســـامة حزينـــة ولمعـــت عيناهـــا بالـــدموع، أغلقـــت البـــاب وراءهـــا، أوصـــت أمجـــد، بـــأن يظـــل بجـــوار والدتـــه ليتصـــل بهـــا فـــورا إن ســـاءت حالتها.بعـــد مـــرور ســـاعات قليلـــة، ســـرى مفعـــول الـــدواء، نهضـــت يمنـــى عـــن الســـرير تتصـــبب عرقـــا مـــن الإجهـــاد، أســـرعت لتكـــون يقظـــة قبـــل أن يعـــود زوجهـــا مـــن العمـــل، تحاملـــت ودخلـــت الحمـــام بـــدلت ملابســـها وتوضـــأت لتصـــلي ، بعـــدما فرغـــت مـــن صـــلاتها ، ألقـــت نظـــرة علـــى طفليهـــا الشـــاردين فـــي مشـــاهدة الرســـوم المتحركـــة، ثـــم ألقـــت نظـــرة أخـــرى علـــى حاســـوبها، شـــعرت أنهـــا افتقدتـــه كثيـــرا، وافتقـــدت عالمهـــا الخـــاص فـــي ذلـــك الكـــون الافتراضـــي،، ضـــغطت علـــى مفتـــاح التشـــغيل ونســـيت كـــل شـــيء حولها،نســـيت همومهـــا وأوجاعهـــا وغاصـــت فـــي بحـــر تبحـــث عن الذات والتقدير.

الجزء الثاني:

(11)

في داخل كل نفس تطلعات وأحلام تسعى إلى التحقق والاغتنام، بهدف إثبات الذات وشغفا للتقدير وحينما ينطفئ الحماس و يصيبها الإحباط أو ينتابها شعور اليأس، تتنازل عن هذه الأمنيات وتضحي بها، ربما لو وجدت فرصة أخرى لتحقيقها لا تدخر جهدا في سبيل إنجازها، هذا بالضبط ما كانت تشعر به يمنى، كثيرا ما شيدت قصور أمنيات في خيالها توق وتصبو ليوم تخطو حاملة شعلة البداية، لتحيا بعض أمانيها ولأن الفرصة لم تأتِ حتى الآن أو ربما رحل ركب الحظ دون أن يصطحبها معه،ما زالت تجلس على شاطئ الأمل وإن طال الانتظار، فهي تملك الحلم، وتعشق الخيال، خيالها الحالم هو مرفأ لملمة شتات النفس، وسدّ نزيف كرامتها المبعثرة على صخرة الرضوخ والصمت، جرح يتسع يوما بعد يوم لا يكاد يندمل حتى يزيد اتساعه،فتمد الفجوة وتنضب منابع العاطفة و المشاعر، فتتسع دائرة العزلة والتقوقع داخل شرنقة الخيال.ما أشد أن يغزو الاشتياق القلب، يستحله ويدفعه إلى الانقياد !وكيف ينقاد وهو لا يملك ؟!هو فاقد الحب عاجز على أن يجده في أرض جدباء انقطع عنها

الغيث!اليت عقلها يهدِّئ من ثورته، ويتأقلم مع مسكنات الصمت وغصص الضعف !هيهات أن يخمد لهيبه ويسكن تفكيره!في أثناء نظرها لشاشة الحاسوب وترقبها لصفحات الفيس بوك، أرسلت لها صديقة رسالة عبر صندوق الرسائل، فضتها بشغف، فشدت تركيزها وبدا على وجهها الاستغراب، ردت على رسالتها بسؤال فحواه الدهشة، فكان ثلاث كلمات وكفى هو:

-وما الفائدة منها؟!.

ردت عليها:

-اشتركي وأحكمي بنفسك!.

حسنًا،رغم أنني أدرك النتيجة قبل دخول الاختبار!.

ثم ختمت حوارها:

-فضلا أرسلي لي خطوات الاشتراك في هذه الدورات التدريبية!.

بعد مرور ربع ساعة كانت تسجل اسمها في قائمة المشتركين، علمت موعد البرنامج الأول لطريق التنمية البشرية،وأيضًا تصفحت الغرفة الصوتية التي سيقام فيها، أشاحت بنظرها عن الحاسوب وشردت تفكر، ما سبب هذا التحفز الذي يراودني الآن؟!، رغم هذا أشعر بتوجس ورهبة من الإقدام على هذه الخطوة، أخشى أن تحمل الأوهام وما عدت أهوى التمسك بآراء نظرية، وماذا تثمر

فـــي أطـــلال خربـــة؟!، إحســـاس المـــرارة ورائحـــة الـــذل دومـــا يرافقانهـــا فـــي تفكيرهـــا ويســـتوليان علـــى إحساســـها، فاستســـلمت لهمـــا وأغلقـــت الحاســـوب، انصـــرفت تلقـــي نظـــرة علـــى طفليها،ســـرعان مـــا ابتســـمت علـــى براءتهمـــا وهمـــا يشـــاهدان التلفـــاز، ســـكون وهـــدوء أمـــام الرســـوم المتحركـــة، سألتهما:

-هل تريدان أن تأكلا الآن؟!.

أومـــآ بـــالرفض، حـــدقت إلـــى ســـاعة الحـــائط أوشـــكت علـــى الثانيـــة عشـــرة،حان وقـــت صـــلاة الظهـــر وعمـــل الغـــداء، فـــي خطـــوات ســـريعة أنهـــت أعمـــال البيـــت، وأنهـــت طهـــي الغـــداء أيضًـــا وقبـــل ذلـــك توضـــأت وصـــلت الظهـــر، اتجهـــت إلـــى غرفـــة النـــوم وقبـــل أن تبـــدل ملابســـها فـــتح زوجهـــا الباب،كانـــت ترتـــدي قميصـــا قصـــيرًا أســـود، يظهـــر كثيـــرا مـــن مفاتنهـــا، هـــذا الشـــعر الطويـــل البنـــي يشـــبه لـــون عينيهـــا، بشـــرة جســـمها النضـــرة الصـــافية وذراعاهـــا الأبيضـــان تغريـــان ذاك المتســـمر الممســـك بالبـــاب، المحـــدق العينـــين، التقطـــت العبـــاءة تخفـــي عنقهـــا وجـــزء مـــن صـــدرها الســـاطع تحـــت هـــذا الثـــوب المغـــري الفاتن،تمـــادى فـــي النظـــر ولـــم يبـــال بارتجافهـــا، بـــل أغلـــق البـــاب يبتســـم ابتســـامة باهتـــة تـــنم عـــن غـــرض مـــن ورائها،كـــان قلبهـــا مشـــحونا بالأوجـــاع، وجســـمها يـــأبى أن يتكشـــف أمامـــه، فمـــن لا يقـــدر عقلهـــا ولا يحتـــرم ذاتـــه صـــعب أن يمتلـــك جســـدها، هـــو لـــه حقـــوق لا يخجـــل أن يطلبهـــا، وهـــي تســـتجيب خوفـــا مـــن ربهـــا، لكنـــه جســـد دون روح، جثـــة فاقـــدة الإحســـاس رغـــم ذلـــك لا تقـــدر أن تحجـــب دموعهـــا، تنســـاب معلنـــة الاحتجـــاج،

جـذبها إليـه يلفهـا بذراعيـه فرمقتهـا بنظـرة امتهـان، لـم يهـتم إن كانـت راغبـة أم لا؟!فـي كـل الحـالات هـو الراغـب لا يسـألها عـن إحساسـها ولا عواطفهـا تجـاه، بالنسـبة لـه مـلاذ وقـت الحاجة.

سرعان ما نهض عنها قائلا:

-أجهزت الغداء،فأنا جوعان جدا؟!.

قامت تجفف دموعها، وتستكمل ارتداء عباءتها:

-دقائق وأضعه على المائدة.

تركهـا واتجـه للحمـام، تركهـا تكبـت داخلهـا المزيـد مـن الامتهان والغضب.

(12)

في صباح اليوم التالي كانت يمنى كعادتها تستيقظ مع بزوغ الفجر تصلي ملتحفة بثوب الصلاة في هذا البرد القارس وتجلس تقرأ أذكار الصباح، ثم تنظر قليلا حتى تلوح تباشير الصباح فتجهز الفطور وشطائر المدرسة لطفليها، أيضًا زوجها يستيقظ في الفجر يصلي ثم يجلس أمام حاسوبه يتصفح صفحات الإنترنت ويجري حوارات مع بعض زملاء العمل في برامج الدردشة، تمر الأيام بشكل روتيني معتاد، تعودت يمنى على هذه الأيام وما تحمله في طياتها من أوجاع أو أتراح، تلوذ بالصمت والصبر كلما هاجمتها عواصف زوجها، تتجنب أن تسبح ضد التيار،تنأى عن ذاك الأرعن وتفضل أن تتنازل وتضحي من أجل تجديف مركب الحياة بينهما،هذه السمة التي تميزها كانت عند زوجها علامة خداع وتمثيل تجيد إتقانها كما يظن، كثيرا ما واجهها بهذه التهم، يطلب منها تأكيدًا أو تبريرًا على توقعاته هذه، كانت تقسم بالأيمان أنها لا تمثل عليه ولا تخدعه، لكن عقله المريض كان يصور له أنها ممثلة بارعة هكذا نظرته للنساء يشبهن الحيات السامة، يرتدين الأقنعة ليخفين مكرهن ويظهرن دموعهن الزائفة،رضيت بقدرها وحمدت الله.

مضت ساعة أنهى الجميع فطورهم،استقل زوجها سيارته ذاهبًا لعمله واتجهت هي إلى المدرسة تمسك طفليها وقبل خروجها من باب البناية تذكرت ذاك الشخص فانتفض قلبها فجأة، وتسمرت في مكانها مترددة تسيطر عليها

الحيرة،مـــاذا تتصـــرف إذا وجدتـــه أمامهـــا مـــرة ثالثـــة ؟!إنهـــا فـــي ورطـــة حقًّـــا، لـــم يعـــد يجـــدي أن تعنفـــه أو تســـبّه؟!لابد مـــن اتخـــاذ قـــرار يوقـــف هـــذا المعتـــوه عنـــد حـــدوده، كيـــف لا يـــدرك أنـــه يســـيء لســـمعة امـــرأة متزوجـــة لـــم تقتـــرف فـــي حقـــه أي ذنـــب؟!، كـــل مـــا يحيرهـــا، لمـــاذا هـــي بـــالأخص؟!، تقضـــم أظافرهـــا تـــوترًا، أتخبـــر زوجهـــا وتحكـــي لـــه عـــن كـــلّ مـــا حـــدث؟!، أتقـــول لـــه أنـــه غازلهـــا وأســـمعها كلمـــات تـــورد خـــدّها منهـــا خجـــلا ؟!، أم تفصـــح لـــه عـــن نظراتـــه التـــي أحاطتهـــا، وتخـــص تلـــك النظـــرة العميقـــة التـــي لـــم تفهمهـــا؟!، هـــل سيصـــدقها ويتخـــذ موقفـــا مـــع هـــذا الصـــعلوك الـــذي غـــازل زوجتـــه، فتثـــور ثورتـــه كرجـــل يـــدافع عـــن أهـــل بيتـــه؟!، أو ربمـــا حملهـــا كـــل الـــذنب، ويتهمهـــا أنهـــا هـــي مـــن طمّعتـــه فيهـــا، مـــن ابتســـامة عذبـــة ســـلبت خلـــده أو لحظتـــه بطـــرف عينهـــا فبادلهـــا غمـــزة كانـــت رســـولا بينهمـــا، تتلفـــت علـــى ملبســـها، تتحســـس وجههـــا لعـــل فيـــه مـــا أطمعـــه وجعلـــه يتجـــرأ أن يحـــدثها بهـــذه الطريقـــة؟!، لـــم تجـــد إلا عبـــاءة فضفاضـــة ســـوداء وحجابًـــا طـــويلا، أمـــا وجههـــا لـــيس عليـــه أي زينـــة أو حتـــى بعـــض لمســـات بســـيطة تتـــزين بهـــا النســـاء لتبـــدو نضـــارتهن، مـــاذا أطمعـــه إذن؟، أتلـــك العيـــون الذابلـــة أم هـــذا الوجـــه الـــذي تعلـــوه تجاعيـــد حـــزن تخطـــو لترســـم آهـــات عمـــر محفـــور بكـــل دمعاتهـــا، كانـــت هـــذه التســـاؤلات كفيلـــة بـــأن تشـــعرها بمـــدى ضـــخامة المـــأزق الـــذي يطاردهـــا.فزادت ضيقًا،ضـــربت يـــدًا فـــي الأخرى تتمتم:

-تبا له هذا المتطفل!.

تقدمت بطفليها نحو المدرسة، وما زالت ترتجف، تتصنع الشجاعة وهي فاقدة لمعناها، تسابق المارة، تهرول كالسهم المارق، وأخيرًا قد اجتازت الطريق بأمان، لم يعترضها هذا المتطفل،فتبخرت بعضا من مخاوفها، حمدت الله واستندت بجوار حائط تلتقط أنفاسها،أخيرًا تنفست الصعداء، أدخلت طفليها المدرسة وودعتهما بابتسامة هادئة، لكن هاجس الخوف يشغلها، تتلفت بنظرها في كل مكان لتتأكد أنه لا يراقبه بنظراته كما فعل أول أمس، تلاشى الهاجس رويدا، رويدا حينما تأكدت أن لا أثر له،خيل إليها أنها تضخم أمره أكثر من اللازم، وما هو إلا تافه سفيه يظن أن أصابع يده مثل بعضها، وكأن النساء صرن فرائس لشراكهم،حتما هو تأكد أنها ليست منهن ولن تخدع بحيله مهما حاول، فبعد عنها وانصرف عن مطاردتها.

ارتاحت لهذا الخاطر، فهدأت جذوة خوفها،ثم أقفلت عائدة إلى البيت تسرع الخطوات كما كانت وهي ذاهبة إلى المدرسة،ما إن دخلت شقتها، بادرت إلى حاسوبها تضغط على مفتاح التشغيل، نعم هي متحفزة ومتلهفة لتعرف مضمون هذه الدورة التدريبية، تعلم أن موعد البدء في الثامنة مساء، لكنها تنتظرها من الحين، تعليقات المشتركين أثارت فضولها وحفزتها أكثر، هل يفكرون في هذا التدريب كما تتخيله؟!، هل ينتظرون خوض هذه التجربة الجديدة مثلها؟!،لمحت اسم المحاضر، فرددته على لسانها:

-صالح شكري...صالح شكري.

ثم أفاقت على صوت المنبه معلنا الساعة الحادية عشرة، أغلقت حاسوبها سريعا واتجهت تنهي أعمال بيتها، وتنجز الغداء قبل أن تذهب لتحضر طفليها من المدرسة أو مجيء زوجها.

قبل موعد الثامنة بقليل ، كانت قد أنهت كل الالتزامات التي تفعلها يوميا وساعدت طفليها في حل واجباتهما، وتركتهما يجلسان أمام التلفاز لمشاهدة الرسوم المتحركة، ابتسمت فرحة فقد ساعدها الحظ أن زوجها ليس في البيت الآن خرج لإنهاء بعض أعمال تتعلق بالشركة ولن يعود إلا بعد منتصف الليل، إذن هي الآن متفرغة تماما لتستمتع بأولى محاضرات الجولة الأولى،فتحت الحاسوب وجلست تقضم أظافرها توترا، حدقت إلى الساعة أوشكت على الثامنة، بحثت عن رابط الغرفة الصوتية وضغطت عليها، في أقل من دقيقة كانت داخل هذه الغرفة، دهشت من كم الأسماء الظاهرة على يسار الغرفة،أما الجانب الأيمن يتضمن لوحة كبيرة للكتابة علاوة على العنوان واسم المحاضر ، لم تتوقع أن تجد هذا العدد، فقد زاد عن المائة، أسرعت إلى المطبخ تصنع قدحا من القهوة يساعدها على التركيز والسهر، ثم في تمام الثامنة لمحت ظهور اسم المحاضر، فعدلت من جلستها ووضعت سماعة الصوت على أذنيها، استرخت على الكرسي، لم يمر دقيقة والتقط المحاضر لاقط الصوت وشرع في التحية،وما أن فتح كاميرا الصورة حتى ظهرت صورة سوداء تماما تملأ الشاشة،وإذا الأنوار

تنقشع فجأة فيظهر هذا المحاضر وهو واقف أمام شاشة عرض كبيرة يرتدي بدلة سوداء أنيقة يلصق لاقط صوت صغير على طرفها ليتحدث من خلاله ويسمع أصوات الآخرين أيضًا، ارتجفت حينما وجدت الشاشة تحولت إلى صورته، كانت الغرفة على تقنية واسعة حيث تنقل الصوت والصورة وكأن المحاضر أمامهم تماما، يستمع لأصوات الآخرين ويجيب عن استفساراتهم، انبهرت يمنى واعتدلت في جلستها تحدق بالمحاضر بتمعن وتركيز، رغم أن سنَّه يبدو في الخمسين يتلون قليل من شعره باللون الأبيض، لكنه يتمتع بوسامة جذابة ولياقة بدنية تمكنه من التحرك بخفة واتزان، لغة جسده المتحركة ونظرة عينيه تظهران قوة شخصيته، بالإضافة إلى تحكمه في فن إدارة المحاضرة،انتبهت محدقة إلى الشاشة تراقب تحركاته وهو يسحب كرسي بجوار شاشة العرض ويجلس عليه في ثقة تعلوه ابتسامة هادئة ترسم على وجهه هالة من الضوء الساطع وطاقة من الجاذبية الملفتة، بعدما ألقى التحية حينما طلت صورته لأول وهلة على شاشة الحاسوب، استطرد قائلا:

-لا تتصورون مدى سعادتي بهذا الجمع الراقي، صدقًا ولا أخفيكم سرًّا توقعت عددا أقل من هذا بكثير، من الأعماق أحييكم لقد أخطأت توقعاتي.

صمت هنيهة مطأطأ الرأس ثم رفعها فجأة قائلا:

-لذلك دعونا نجعل أول محاضرة للتعارف بيننا، هذه لازمة دوما أبدأ بها في أولى محاضراتي لأي مجموعة مشتركة جديدة تتدرب تحت يدي، صمت برهة أخرى ثم استكمل:أعلم أن العدد كبير، لهذا سأمنح كل واحد منكم دقيقة واحدة، يقدم فيه شخصه وهدفه،أرى العدد أمامي مئة وعشر أي مئة وعشر دقيقة بمقدار ساعتين إلا عشر دقائق، فليبدأ الأول، وليحافظ كل واحد على وقته بالثانية، واحد اثنان ثلاثة،ابدأ.

توالت أصواتهم واحدًا بعد الآخر يذكر اسمه وتخصصه وهدفه ملتزما بالوقت الذي أتيح له، في تلك الدقائق التي كانت تمر في التعارف، كانت يمنى مشدوهة متأملة لهذه الشخصية المبهرة التي اختطفت عقلها وبصرها، تتابعه بتمعن تشدها ثقته بذاته وكيفية إدارته للمحاضرة، ومزاحه أحيانا، أما رقته وحسن تواضعه، وطريقته احترامه للحضور أدهشتها، فكانت مبهورة بفطنته وذكائه في التواصل عبر الصوت وكأن الجمع يجلسون أمامه حقًّا يراقبهم بعينه، لكنه الآن يراهم ويسمعهم بأذنيه!

مرت الدقائق سريعا دون أن تشعر بها ما زالت صورته تخطف نظرها، لا تستطيع أن تشيح هنا أو هناك، جاء دورها أن تعرفهم بشخصها، ارتبكت لا تدري ماذا تقول، واشتعلت حرارة الخجل والرهبة داخلها تنضح على وجهها حمرة ملتهبة، تحشرجت الكلمات داخل حلقها، ففركت يديها، تتمنى لو تضغط على أيقونة الخروج كي تهرب من هذه الورطة، كل هذا دار في عقلها أقل من ثوانٍ

معـدودة، سـاد صـمتٌ قلـق لمـدة دقيقـة ولأن هـذا الرجـل ذكـي خبيـر أدرك سـمات هـذه الشخصـية وفطـن لمخزونها،فسألها:

-أتسمعين أستاذة؟!.

ارتعدت وتفاقم توترها وكتبت مكدودة:

-نعم

أومـأ برأسـه دون أن يـتكلم، ولكـي يخرجهـا مـن هـذا المـأزق كمـا أدرك، فبابتسـامة هادئـة وكلمـات واثقـة وحكمـة قائـد يقـظ قطـع عليهـا حبـل الصـمت، وإذا بـه يطلـب مـن الاسـم الـذي يليهـا أن يلـتقط لاقـط الصـوت ويعـرف شخصـه.لكنه لـم يـنس أن يسجل اسمها في ذهنه لمغزى يكنّه في نفسه.

(13)

لم يمر هذا الموقف على يمنى بسهولة أو تقبل كأيّ مأزق محرج يتعرض له أي إنسان، ويتناساه مع مرور الوقت، كانت هي الوحيدة التي لم تلتقط لاقط الصوت وتتحدث معرفة بشخصها.

شعور صعب أن تكون الشاذ الوحيد في قاعدة مطردة ! صمت الخجل المريض جعلها في وضع لا تحسد عليه، في قرارة نفسها حزمت الأمر واعتزمت أنها لن تكمل هذه الدورة مهما كان،فدوما الحظ يعاكسها يخالف ما تتمناه، فلماذا الاستغراب إذن !

وضعت يديها تحت ذقنها مطأطئة الرأس خجلة، تعاتب نفسها على هذا الخذلان، وقبل انتهاء الدقائق الأخيرة من زمن المحاضرة، كانت قد أغلقت رابط الغرفة، وأقفلت حاسوبها، وجلست شاردة تكاد تبكي، فاضطرت أن تلجأ إلى الإذعان والتبرير،كي تقنع عقلها أن الأمر لا يستوجب أن تقف وقفة معاتبة وتحاسب نفسها إن كانت مصيبة أم مخطئة؟!.

لكنها عجزت أن تقتنع أن صمتها أمر طبيعي فلا داعي لتضخيمه، أومأت برأسها حزنا، فاعترفت وأقرت:

-نعم أنا ضعيفة، ضعيفة!.

لا مفر من هذه الحقيقة،لا مفر.هذا قدري ولن أقدر على تغييره.

مسحت دموعها، واتجهت لترى طفليها، وجدتهما نائما وهما يشاهدان التلفاز، أيقظت أمجد وحملت إيهاب على كتفها وأدخلتهما حجرتهما ودثرتهما جيدا، سمعت باب الشقة يغلق فأدركت أن زوجها قد أتى، ذهبت إليه واجمة، حينما رآها سألها:

- ألا تزالين مستيقظة ؟!.

أجابته ببرود:

-أجهز لك العشاء؟!.

-لا.لقد تعشيت في الشركة.

- إذن تصبح على خير.

وتركته متجهة إلى غرفة النوم،نظر إليها نظرته الباردة المعتادة وتأفف ضيقًا، رمى مفاتيحه على الطاولة، واتجه إلى مكتبه يتطاير الغضب من عينيه، ركل كرسي المكتب في غضب،يدور في الغرفة هائجا،توقف فجأة، وأخذ نفسًا عميقًا ثم أغلق مفتاح إضاءة المكتب واتجه وراءها، ركل الباب بقدميه، فنهضت عن السرير مفزوعة تحدق إليه.أمسكها من ذراعها قائلا:

-ألا تشعرين بتاتا أيتها الغبية؟، ألست رجلا متزوجا أحتاج امرأة ترعاني وتقف بين يدي تتمنع، وتتمايل في دلال وخنوع؟!، لماذا لا تفعلين مثل النساء، تتزينين مثلهن،

وتسمعيني الضحكات الرنانة التي تدغدغ القلب،ألم تسمعي يوما عن الأنوثة والرقة؟!.

ترك ذراعها في عنف وقال مغتاظا:

لقد سئمت الحياة معك، لولا الطفلان...

وسكت.

سهمت في وجهه و ابتسمت ابتسامة صفراء، ووضعت الوسادة على رأسها متدثرة بالغطاء،ثم نامت.

وقف دقائق واجمًا ينظر إلى هذه الجثة المتمددة على السرير المكفنة بالغطاء الكثيف،ثم أغمض عينيه لحظة يأخذ نفسا عميقا وشرع في تبديل ملابسه، ثم تمدد بجوارها على السرير لينام،لكنه لم ينس أن يركلها في ظهرها تنفيسًا عن ضيقه وتأففه.،شعرت بضربته فلم تبال بها، هي تعودت هذا منه، أيضًا جسمها لم يتألم فقد تبلّد كما تبلدت أحاسيسها.

كما الروتين اليومي قامت في الفجر تصلي وتجهز ما تفعله كل يوم،لكن اليوم الجمعة راحة من هذا المشوار اليومي إلى المدرسة، بعدما أنهوا الفطور، اتجهت إلى حاسوبها تقضي معه بضع ساعات لتنسى معه كل شيء حولها، حينما فتحت موقع التواصل (الفيس بوك) لاحت أمامها تعليقات المشتركين أمس وتعقيبهم على المحاضر وثناءهم على أسلوبه وطريقته في إدارة الحوار، تذكرت ما حدث لها بالأمس فامتعضت معدتها، حاولت أن تغافل

شعور الضيق فجالت بنظرها في الشاشة أمامها، لمحت إشعارًا لأيقونة الأصدقاء يعلمها بطلب صداقة جديد، وأيضًا إشعارا آخر برسالة،ضغطت على الرسالة أولا لتقرأ محتواها:كانت قصيرة:

(-رجاء قبول الطلب)

حدقت في دهشة، تهمس في نفسها:

-أجل، إنه اسمه صالح شكري!، كيف وصل إلى حسابي هذا؟!.

تذكرت أنها سجلت بريدها الالكتروني من ضمن بيانات القبول في الدورة التدريبية،وربما عرف حسابها عن طريق بريدها.

ضغطت على إيقونة طلبات الصداقة،بالفعل وجدته أرسل لها طلبا بإضافته إلى حسابها، ابتسمت ابتسامة لا تدري سببها،لكنها قلقة متررددة تحوم في عقلها أسئلة كثيرة،هي لم تعتد أن تقبل طلبات صداقة من الرجال، كل الأصدقاء في صفحتها الشخصية نساء، عددهن ليس كبيرًا لكنها تعرفهن وتحاورت معهن.

وجلّ قلبها لأول مرة ستضيف رجلا لقائمة الصديقات، الطلب يحتاج تفكيرًا قبل أن تأخذ أي خطوة تندم عليها بعد ذلك.

انتفض قلبها فجأة وتساءلت:

-أمعقـــــــول كـــــــان مـــــــوقفي بـــــــالأمس ســـــــيئًا ؟ ألهـــذه الدرجـــة كـــان محرجًـــا،حتى اســـتطاع أن يحفـــظ اســـمي ويرســـل لـــي رســـالة؟!، ليتنـــي مـــا ســـجلت فـــي هـــذه البرنـــامج التدريبي.

لـــم يمهلهـــا الفضـــول أن تـــرفض أو تظـــل متـــرددة تفكـــر فيمـــا تجنيـــه مـــن هـــذه الخطـــوة، دفعهـــا لأن تقبـــل طلبـــه، وعقلهـــا مشغول:

-ماذا يريد؟.

ناداهـــا زوجهـــا فانتفضـــت فزعـــة مـــن شـــرودها أســـرعت إليـــه، وقبل أن تتكلم باغتها:

-أريد قدحا من القهوة !أومأت برأسها وانصرفت.

عـــادت إلـــى الحاســـوب مـــرة أخـــرى بعـــدما صـــنعت لـــه القهـــوة فوجدت رسالة جديدة منه:

-لماذا تركت المحاضرة قبل نهايتها؟!.

فأجابتـــه بالصـــمت الحـــذر،لم تجـــد إجابـــة تـــنمُّ عـــن نضـــجها أو حتـــى تتصـــنّع الجُـــرأة فـــي الحـــوار، هـــي ليســـت بالفتـــاة الصـــغيرة المراهقـــة كـــي تفعـــل هـــذا، هـــي امـــرأة فـــي الثلاثـــين، لـــديها رصـــيد وفيـــر مـــن الاتـــزان والنضـــج الفكـــري كمـــا يظـــن فـــيمن يتقـــدم للتـــدريب فـــي هـــذه الـــدورات،إذن لابـــد مـــن إجابـــة تكشـــف عـــن شخصية قوية ناضجة،وهل فاقد الشيء يعطيه؟!

أرسل لها رسالة أخرى تقطع صمتها:

-علمنـــا أنـــك خرســـاء، فهـــل أيضًـــا لا تجيـــدين الكتابة؟!وألصـــق مع الرسالة وجه يضحك.

ابتســـمت لدعابتـــه، وتحـــررت مـــن بعـــض جمـــود ورهبـــة وكتبـــت له:

-حضـــرتك الأســـتاذ صـــالح شـــكري الـــذي كـــان يتحـــدث بالأمس؟!.

فأرسل لها هذه المرة وجه طفل يبكي.

وكتب:

-أخيرًا أدركت أنني.

-أهلا وسهلا بحضرتك.

-اسمك أستاذة يمنى أليس كذلك؟!.

-بلى.

-أريد أن أخبرك بشيء هام،أيمكنني ذلك؟!.

-قطعا، ما هو؟!.

-علمتنـــي الحيـــاة أن أســـلك الطـــرق الـــوعرة ولا أهيبهـــا، عشـــقت أن أصـــنع النجـــاح بيـــدي وأصـــارع الفشـــل، صـــرت متيمـــا فـــي صـــنعتي، حـــاذق فـــي إتقانهـــا أتوغـــل كطيـــف فـــي نفـــوس الآخـــرين، وأتســـلل لعقـــولهم لأحلـــل فـــيمَ يفكـــرون!، هـــذه مهـــارات ومواهـــب لـــم تـــأت مـــن فـــراغ، أنهكتنـــي وأخـــذت مـــن

عمري الكثير، حتى صرت أنظر في عين الآخر، أدرك ماذا يريد،أسمع ذبذبات أصواتهم أفطن لسمات شخصياتهم، أن تفجر طاقات وقدرات مكبوتة داخل النفس من أسمى أهدافي،لذلك اختياراتي لهذه الشخصيات دوما تثبت نجاحها وعبقرياتها.

وأنا الآن وقع اختياري على شخصية ليست بالهينة،حدسي يخبرني ويؤكد لي أنها شخصية لن تتوقع كم قدراتها ومستوى نبوغها،أتمنى أن تكوني فهمت ما بين سطور كلماتي، إلى لقاء آخر.

انصرف ولم يعطها مهلة لتجيبه، هو يدرك تماما أنها فهمته، كما يخبره حدسه، وسيلعب على هذا الوتر، ليمارس عشقه لهذا المجال،كنزه الحقيقي صناعة قادة يوقظ داخلهم منابع القوة والإدراك

(14)

-(أستاذة يمنى لو سمحتِ ادخلي المحاضرة الآن)

كانت هذه الرسالة التي أرسلها المحاضر (صالح شكري) قبيل بدء المحاضرة الثانية، هو تنبأ بأنها بيتت النية وعزمت أنها لن تستكمل هذه الدورة،فليس مثله من تخفي عليه خوالج هذه الشخصية، فباغتها بالرسالة هذه، ليضعها أمام نصب عين التحدي، ويقطع مدد الخضوع ليحرك الرغبة والدافع مرة أخرى.

الساعة تجاوزت الثامنة بدقائق وهي مترددة كعادتها تتساءل:

-هل تنصاع لطلبه، وتراوغ شعور الخجل لتهرب من خوفها،أم تبتعد نهائيًا وتغلق هذا الحساب الشخصي، حتى لا تقف موقف الضعيف وتضطر أن تداري جبنها بالاعتذار والتبرير، يكفيها ما هي فيه، لا تريد أن تتعلق بأمور شبه مستحيلة، تكره أن تعيش في الوهم وتتعلق بحبائله البالية، هي مقيدة عاجزة على التحرر تدرك قدرتها جيدا، فلا جدوى من المحاولات.

حاولت أن تنأى بتفكيرها عن هذا المحاضر، فزاد شرودها، هل سيضايقه هذا التجاهل لطلبه، ماذا سيقول عنها؟!، شعرت بتأنيب الضمير، فهل جزاء لطفه وذوقه أن تقابله بهذا الجحود وعدم التقدير؟!، ليته يدرك أنها تعاني

صـــراعًا مريـــرًا، يســـيطر علـــى تفكيرهـــا، يســـلبها الإرادة واتخـــاذ القـــرار، ســـكنت هنيهـــة، وفجـــأة حـــدقت إلـــى الســـاعة، لقـــد تجـــاوزت الثامنـــة والنصـــف، ضـــغطت علـــى رابـــط الغرفـــة الصـــوتية، فـــي أقـــل مـــن دقيقـــة كانـــت داخلهـــا، امـــتلأت شاشـــة حاســـوبها بصـــورته، فرنـــت إلـــى صـــوته تســـتمع لمـــا يقـــول، كـــان أنيقًـــا هادئًـــا يرتـــدي بدلـــة رماديـــة و ربطـــة عنـــق زرقـــاء، يتحـــرك بخفـــة واتـــزان تعلـــو وجهـــه هالـــة مـــن الثقـــة أمـــام شاشـــة العـــرض وهـــو يشـــير بمحـــرك الحاســـوب فتتحـــرك صـــور البرنـــامج علـــى الشاشة.صـــمت لحظـــة وهـــو يحـــدق إلـــى حاسوبه، ابتسم، وأعاد حديثه قائلا:

-أخبـــرتكم ســـابقًا، أننـــا فـــي ســـباق مـــع الـــنفس، ولكـــي تفـــوز بـــأي جولـــة مـــن البـــديهي تـــدرك أولا ميـــزات القـــوة ونقـــاط الضـــعف عنـــد خصـــمك، ومـــن خـــلال هـــذه الـــدورة التدريبيـــة ســـنمر علـــى أربـــع جـــولات ســـتقودكم إلـــى اكتشـــاف أســـرار الـــنفس، وتقتحمون وكرها، وتتحسسون مكامنها وخفاياها،لكن...

صـــمت برهـــة نـــاظرا إلـــى الكـــاميرا يمهـــد لحـــديث يحتـــاج إلـــى شـــد انتبـــاههم، هـــو خبيـــر محنـــك يـــدرك متـــى يتحـــدث، متـــى يتوقـــف، متى ينظر.متى يبتسم، ومتى يراوغ؟!.

استطرد قائلا:

-لكـــن الجولـــة الأولـــى ســـتكون علـــى المحـــك، ستصـــفي الكثيـــر، وربمـــا يصـــل العـــدد للنصـــف أو الثلث،حتمـــا مـــن ســـيرتقي للقمـــة ويجتـــاز الجـــولات الأربـــع، ســـيتوج قائـــدًا لـــدورات تدريبيـــة

أخرى،هـــذه الجملـــة الأخيـــرة بعثـــت فـــي نفوســـهم شـــعور الحماسة.

سكن لحظة وسألهم:

-أخبروني من لديه ورقة وقلم.

أشـــار الجمـــع بالضـــغط علـــى أيقونـــة صـــغيرة لرفـــع اليـــد، ابتســـم معقبًا:

-فلتحتفظـــوا بهمـــا طـــوال الجـــوالات القادمـــة، التـــدوين مـــن أسس التميز.

صـــمت برهـــة أخـــرى متجهًـــا إلـــى حاســـوبه بعـــد أن أغلـــق شاشـــة العرض وكتب شيئًا ثم رفع عينيه للكاميرا مستطردا:

-الآن انتهـــت المحاضـــرة مـــن لديـــه أي استفســـار فضـــلا إرســـاله على بريدي الالكتروني،إلى لقاء آخر.

ضـــغط علـــى أيقونـــة إرســـال رســـالة خاصـــة لا يراهـــا إلا المرســـل إليه فقط كان محتواها:

-(شـــكرًا أن قطعـــت صـــراع التـــردد وشـــرفتني بالحضـــور، لـــك كلّ الاحترام).

وأرفق معها صورة لِباقةِ ورد بيضاء.

قبـــل أن تعلـــق يمنـــى رابـــط الغرفـــة وتخـــرج فاجأتهـــا هـــذه الرســـالة المعبقـــة بباقـــة الـــورد البيضـــاء، ضـــحكت وأشـــرق

وجههـــا فرحـــة، وأغمضـــت عينيهـــا ســـعادة، وبادلتـــه برســـالة (بل الشكر لك دائمًا).

أرســل لهــا رســالة أخــرى، لكــن هــذه المــرة مرفــق فيهــا بريــده الالكتروني يطلب أن تضيفه لديها.

نسخت البريد وأضفته إلى بريدها وأغلقت رابط الغرفة.

اســـترخت علـــى الكرســـي وشـــردت فـــي خيالهـــا، مبتســـمة لا تـــدري ســـبب هـــذا الشـــعور الـــذي انتابهـــا الآن، ومضـــة أمـــل مبتهج تتلألأ داخلها تبعث بنشوة سكون.

أفاقت فزعة على صوت زوجها يهز كتفها:

-يمنى يمنى أنمت وأنت جالسة!.

ارتبكت قائلة:

-لا.لكني غفلت قليلا.

-هيا حضري لي العشاء.

أغلقـــت حاســـوبها وخرجـــت تلقـــي نظـــرة علـــى طفليهـــا فوجـــدتهما يلعبـــان بألعابهما،جلســـت بجوارهمـــا تنظـــر إليهمـــا وهـــي شـــاردة، لا تســـتطيع أن تـــداري ابتســـامتها ونظـــرة الفـــرح التي تلمع في عينيها.

(15)

مضت ثلاثة أسابيع ويمنى تتابع الجولة الأولى لبرنامج التنمية على مدار محاضرتان كل أسبوع، تبدأ في الثامنة مساء وتنتهي في العاشرة، في هذه المدة التي تصل للساعتين تظل محدقة إلى شاشة الحاسوب تتفحص هذا المحاضر بمنتهى الدقة والتركيز، تشدّها طبيعته الجاذبة وشعور الرضا والارتياح المزدان على قسمات وجهه، وتبهرها ابتسامته المتلألئة المرسومة على شفتيه،بالإضافة إلى معلوماته المستفيضة في ميادين عدة، كان يستأثر إعجابها ويستحوذ على تفكيرها،تدون كل الملاحظات والمعلومات التي يقولها في مدونتها الورقية، فتفتق داخلها رغبة قوية أن توقظ شعلة الفكر والتأمل، وتحرك الطاقات الراكدة، وتزيل عنها قشور الضعف والانقياد، كانت يمنى متأكدة من أن شخصية هذا المحاضر على نقيضها تماما وهذا الشعور يسبب لها الرهبة من التعامل معه، بطبيعة الحال الفرق في التفكير بينهما والتضاد في التعامل مع مجريات الأمور يجعل الإحباط والتردد يهيمنان عليها،علاوة على العشر سنوات الأخيرة التي مرت عليها، من بعد زواجها قد أماتت عندها أيّ إحساس تجاه العواطف والمشاعر والبحث عن تقدير الذات، هو نفسه صالح شكري يدرك أن طريق البناء صعب، سيقابله عقبات ربما تهدم ما يحاول أن يحركه داخلها، فلكل شخصية برمجة معينة وأسلوب محدد يلائم

طبعها، كي يغيّر أفكارها المتأسدة،هو يدرك أن إحلال فكرة مكان أخرى بمثابة مصارعة وحش كامن ومختبئ متربص لمن يحاول أن يقتحم مخبئه،سيبارز بضراوة حتى يحتفظ بثوابته أو خلية سرطانية لها سطوة متوغلة داخل الفكر لن تسلم بسهولة ولن تتوانى عن المراوغة والخداع حتى تمتلك الفكر كله، طوال فترة الثلاثة أسابيع لم يرسل لها أي رسالة، لا عبر الفيس بوك ولا الغرفة الصوتية كرسالة خاصة لها وحدها ولا عن طريق البريد الالكتروني، فشغلها هذا الصمت منه ووضعها في حيرة:

-لماذا اختفت رسائله فجأة ؟!.

ينازعها سؤال تتمنى ألا يكون صحيحا يلح عليها كثيرا:

-هل فعلت شيئا ضايقه ؟!.

وكلما تجد منه الصمت عنها كان التحدي يفطر داخلها، يتفتق كنبتة صغيرة تتحسس طريقها، كانت منكفئة على نفسها تفكر فيما يقدمه عبر شاشة العرض، تنصت بإمعان لطريقته في الإلقاء والطرح، تراقب لغة جسده وانفعالاته، ليس من السهل عليها أن تبدل برمجة عقلها التي تربت عليها واستوطنت داخله الثوابت التي لا تتغير،فكان الأمر شبه مستحيل وخاصة، المحيط حولها لا يشجع على هذا التغيير، قطعا، في داخلها شيء بدأ يتغير ويصل إلى مبتغى منشود، لكن في الوقت ذاته أضحت أسيرة الخوف من المجهول، الرهبة والفزع أن تفقد حياة الركون والعزلة وتتطلع إلى عالم مختلف عنها، عالم غريب موحش لم

تألفه، تشعر كأنها سمكة صغيرة لو خرجت من الماء ستموت حتمًا، أن تنكمش في عالمها الخاص المألوف يمنحها شعور الأمان والتخدير النفسي، لقد طالت مدة مقاومتها لشكوكها وخوفها من القادم،فتصاعدت من أعماقها رائحة الأمل ونشوة التحدي فلجأت إلى التملص والتحايل وهربت من تلك الشكوك.

كانت المحاضرة الأخيرة في الجولة الأولى ميعادها بعد قليل، تعلم أن اختبار التصفية سيعقد بعدها بيومين، لم يكن كافيا شعور التحدي والأمل الذي شرع داخلها، كانت تفتقد شيئًا آخر، وهذا ما حاولت أن تبحث عنه.

في تمام الثامنة طلّ المحاضر بتمام أناقته وثقته المعهودة وتقدم شارحا ببراعة خاتمة الجولة الأولى، هذه المحاضرة ستؤدي إلى انعطافات كثيرة ستبدأ مع بداية الجولة الثانية، شرع في عرض عدة نقاط على شاشة العرض كانت تكمن في كيفية تطور الذات ومعالجة أخطاء تظل مسلم بها إلى أن تصطدم بحقائق جدية فتحدث حلقة من الصراع تحتاج لفترة نقاء وإعادة توطيد الفكرة الصحيحة،كان مركزًا على ضرورة صناعة قوة داخلية تصارع من أجل البقاء، تحرر الطاقة المكنونة من قيود عبودية الوهم والتقوقع داخل شرنقة الضعف خوفا من المجازفة أو المخاطر.

أنهى حديثه ووقف ببهاء وعظمة، كم كان منظره مثيرًا للإعجاب!، صمت وألقى نظرة بفخر إلى الكاميرا قائلا:

-جمعنا الودّ والاحترام في هذه الجولة، وسيرافقنا الأمل والصبر في الجوالات القادمة إن شاء الله، أراكم بعد يومين في اختبار التصفية، دمتم بارعين.

خطا واثقًا إلى حاسوبه وكتب شيئًا، فانتفض قلبها أدركت أنه يرسل لها رسالة، ضغط على أيقونة الإرسال وأرسل لها ابتسامة خفيفة عبر الكاميرا، فاستقبلت الرسالة سعيدة، كان مضمونها:

-(سأنتظرك غدا في تمام العاشرة صباحا في هذه الغرفة الصوتية).

ابتسمت وبادلته أيضًا رسالة مكونة من كلمة واحدة:

-(حسنًا).

يا لها من سعادة !،حينما شعرت أن هذا الجذاب الأنيق يقدرها، ويخصصها عن الآخرين برسالة وإن كانت غير متأكدة إن هي الوحيدة التي يرسل لها رسالة أم يهتم بهم جميعًا؟!، عانقتها نشوة مشبعة بشعور جديد، لم تعد عيناها ذابلة كما كانت بل دبّ فيهما بريق ابتسامة تزينها،يشعان جمالا فوق جمالهما، احتست الشاي الذي صنعته منذ قليل بعد أن أغلقت الحاسوب، جلست على أريكة ناعمة بجوار شرفة صغيرة، شاردة تفكر فيما طرأ على حياتها، وضعت الكوب من يدها وبقيت لحظة متصلبة من تأثير التفكير،دققت النظر أمامها في اللاشيء،وفجأة استلقت على الأريكة وغاصت في نوم عميق.

(16)

فـــي صـــباح اليـــوم التـــالي اســـتيقظت يمنـــى مـــع الفجـــر نشـــيطة تـــداعبها ابتســـامة رقيقـــة علـــى وجههـــا، كـــان عليهـــا أن تحـــافظ علـــى هـــذه الابتســـامة كمـــن يحـــاول أن يقتـــنص فراشـــة جميلـــة تتـــراقص بـــين أزهـــار الربيـــع، أغمضـــت عينيهـــا فـــانفتح أمامهـــا طيـــف يتـــراقص فـــي طريـــق يشـــع ضـــوءً،ظلت لـــدقائق ثـــم نهضـــت تنهـــي متطلبـــات يومهـــا المعتـــاد.

علـــى هـــذا المنـــوال اســـتمرت لبضـــع ســـاعات حتـــى أوشـــكت الســـاعة علـــى العاشـــرة صـــباحا، ارتجـــف قلبهـــا فجـــأة، وشـــعرت بـــالتوتر، كـــادت أن تبتعـــد عـــن الحاســـوب وتغلقـــه، لكنهـــا ضـــغطت علـــى رابـــط الغرفـــة الصـــوتية ودخلـــت، فلمحتـــه داخلهـــا، زاد ارتجافهـــا فهـــي وحيـــدة معـــه، الغرفـــة المليئـــة بأســـماء الحضـــور، الآن فارغـــة إلا منهمـــا الاثنـــان،ازدردت لعابها،وظلـــت قلقـــة تنتظـــر مـــاذا ســـيقول؟! مضـــت دقيقتـــان وهـــو صـــامت إلـــى أن فـــتح الكـــاميرا فظهـــرت صـــورته، كـــان جالسًـــا علـــى كرســـي أمـــام منضـــدة صـــغيرة عليهـــا حاســـوبه وخلفـــه شاشـــة العـــرض، هـــذه المـــرة مختلـــف عمـــا ســـبق، يرتـــدي قميصًـــا قطنيـــا أبـــيض وســـروالا أســـود يزيـــده وسامة،ويحتســـي كوبـــا مـــن القهـــوة، أخـــذ منـــه قلـــيلا، ثـــم وضعه على المنضدة ورفع بصره إلى الكاميرا قائلا:

-أستاذة يمنى تسمعينني؟.

انتبهت لصوته فارتبكت، فكتبت له:

-نعم .

ابتسم واستطرد:

-أولا السلام عليكم .

ردت التحية وكتبت:

-وعليكم السلام .

ابتسم قائلا:

-ألم يئن أن نسمع صوتك ؟!؟

شعرت بالخجل وكتبت:

-لا أستطيع أن أتحدث بلاقط الصوت.

بدا على وجهه تصنع الدهشة وتساءل:

لمَ؟!.

تقلصت معدتها ولم تجد ردًّا مقنعًا فكتبت:

-لم أتعود على التحدث مع الرجال.

صـــمت لحظـــة وأومـــأ برأســـه، أراد أن يســـتفز طاقتهـــا وتفكيرهـــا فقال:

-وماذا عن غد حينما أسألكِ في اختبار التصفية ؟!.

حدقت إلى الشاشة فاغرة الفم مندهشة، صمتت عن الكتابة كي تتأكد مما سمعت!،أدرك أنه صدمها بالمتوقع غدا فناداها:

-أستاذة يمنى أنت معي؟!.

انتفضت لا تدري ماذا ترد؟!فكتبت له:

-أستاذ صالح لا أفهم مرادك؟!.

حدق إلى الكاميرا وقال:

-بل تفهمين مرادي جيدا.اسمعيني سيدتي غدا ستتحدثين بلاقط الصوت، وتعرفين بشخصك ثم تقدمين ملخصًا عن الجولة الأولى.

قاطعته بالكتابة:

-أستاذ صالح، صدقا لا أستطيع أرجوك أعفني من هذه الدورة التدريبية، أرجو.

قاطعها هو هذه المرة قائلا:يمنى لماذا تهربين من المواجهة، كوني شجاعة والتقطي لاقط الصوت وحدثني كما أحدثك.

اندفعت تكتب:

-لا أستطيع، لا أستطيع.

صمت برهة محدقا أمامه وقال:

-إذن جربي الآن معي الحديث، تأكدي أن صوتك جميل والفرصة أمامك للغناء. (وضحك)

شعرت بالخجل فابتسمت، ولم تكتب شيئا. أدرك بذكائه أنها بدأت تتراجع عن قرارها، وإذا أصرّ هو سيستفزها ويدفعها لتتحدث صوتا.
رفع صوته يحفزها:

-هيا يمنى هيا، سأترك لك اللاقط الآن هيا.

اضطربت وتصببت عرقا حتى أحمرت وجنتاها، تفرك في يديها، تعلم أنه مصمم ولن يتراجع عن دفعها للتحدث. ظلت تصارع الخوف بضع دقائق، لكن الاضطراب لم يدم كثيرا، جمعت أشلاء قوتها وعزمت أن تلبي طلبه، التقطت لاقط الصوت وقالت بتلعثم:

-السلام عليكم .

فأجابها مبتسما ابتسامة نصر:

-وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، أخيرا أسمعتني صوتكِ.

ابتسمت خجلة:

-أجل.

ضحك يدندن بعض كلمات غير مفهومة ثم قال:

-تعرفين يمنى.

فردت:

-أعرف ماذا؟.

-آمل فيك خيرا أن تستكملي مشواري.

حملقت إلى الشاشة مشدوهة لتتأكد أنه يقصدها هي، فأومأ برأسه وقال:

-أجل يمنى، أنت من يقدر على هذه المهمة، فلا تخذليننني.

عاد الاضطراب ليصارعها مرة أخرى فاندفعت قائلة:

-أستاذ صالح حضرتك لا تعرف عني شيئا،فكيف تمنحني مهمة لست أستحقها، وفي نفس الوقت عاجزة عن.

لم يمهلها استكمال الكلام وقال في هدوء:

-بل أنت لها، والأيام ستثبت ذلك، وسأذكرك، فلا تنسي.

لولا أنها كتمت قلقها وحاولت إخفاء توتر صوتها لسمع نبضات قلبها التي تدق بعنف، لا تصدق أن هذا الرجل الذي تتعلق به العيون وتنجذب له القلوب، إضافة إلى صيته وشهرته التي تملأ صفحات المواقع الاجتماعية وكتبه المنتشرة في دور النشر يحدثها هي، بصوته وصورته ويحملها أمانة استكمال طريقه.
من هي لكي يمنحها هذا ؟!ألا يدرك أنها تتلعثم لو حدث ووقعت في مأزق، لا تستطيع المواجهة والدفاع عن نفسها هي امرأة ذات فكر مشوش ونفس ضعيفة، لولا أن

شخصيته تنم عن أخلاق وأدب لقالت أنه يغازلها ليتسلى بها، لكنها متأكدة أنه ليس هذه الشخصية السخيفة الدنيئة. بالتأكيد يتحدث عن امرأة لا يعرف المحيط الذي عاشت فيه ولا السجن الذي تقبع فيه الآن، هو يتحدث عن امرأة رسمها في خياله الخصب، امرأة مصنوعة من شخصيته وقوته هو.أدرك أنها في لحظة احتدام مع نفسها فأراد قطع الخلوة المحتدمة فقال:

-اتفقنا يمنى غدا أولى خطوات طريق القمة، بداية تسلق جبل القوة، غدا بداية النهاية، فلتدربي نفسك جيدا، إلى اللقاء.

اندفعت قائلة:

-أستاذ صالح أرجوك لا أستطيع، أنت تورطني في أمر.

قاطعها مرة أخيرة:

-يمنى موعدنا بعد غد في تمام الثامنة إلى اللقاء.

خرج من الغرفة مسرعا لم يمهلها فرصة أن تناقشه في قراره هذا،وضعها أمام الأمر الواقع مترصدا. يا له من رجل قوي عنيد!تركها في حالة يرثى لها حقًّا! انصرف منتشيا بقراره وتركها غارقة في بحر من التفكير، ماذا ستفعل بعد غد؟!

(17)

ظلت يمنى طوال يومها شاردة تفكر، تتقلب ما بين نارين فيزيد ارتباكها، ما بين نار الخجل والخوف التي تصارعها بلا هوادة ونار البركان الخامل المترقب داخلها،نشأتها في بيئة منغلقة منعزلة دفعت هذه الأنثى الخجولة بطبيعتها إلى الانطواء والضعف، لم تخدمها لأن تتشجع وتحاور أو تتشاجر وتعارك وبالتالي لن تصبح في ليلة وضحاها تتمتع بجرعة شجاعة ودفعة جُرأة كي تتحدث دون تلعثم أو اضطراب أو حتى اتخاذ خطوة التحدث نفسها، والنار الأخرى تشتد وتستعر داخلها، نار البركان الخامل التي بدأت تنشط وتدب فيها شرارة جديدة، تلهب داخلها شعور تحدٍ، ترمم باقي أطلال تحتاج إلى تطهير وتشييد، ليس من السهل أن تخمد هذه النار لتحيا بهدوء نفسي ألفته منذ سنوات عديدة، هدوء مخدر يسكن دوافع الاعتزاز، فلا من الطبيعي أن تخنق روحا بدأت تدب في خوالجها، جمال روح يرسم الابتسامة ويبعث الأمل.

لم تنم ليلتها هذه ظلت تتململ على أشواك التفكير، كل ما يشغلها هل تستطيع حقًّا التحدث عبر لاقط الصوت أم سيسيطر عليها نفس الصمت المخيف الذي أخجلها في أول محاضرة؟!، كلما هلّ هذا الشعور ولاحت معه صورة المحاضر ارتجفت، لا تتمنى أن تخذل هذا الرجل الكريم! ولكي تخفف جذوة الارتباك حاولت أن تقنع نفسها بأنهم لا يرونها، مجرد صوت فقط، لن يلاحظوا حمرة وجهها من

لسعة الخجل أو توتر أعصابها من رهبة الموقف فلتتصرف على هذا الأساس.

هي تشبه بمن أخذ إلى الشاطئ ليتعلم السباحة وبعدما وصل لعمق البحر تركه أستاذه وحده، وقال له (اسبح وحدك، واحذر من الغرق) نعم الموقف متأزم لديها تحتاج أن ترتب حالة الفوضى التي تشعر بها الآن، بعد تفكير مضنٍ منهك غاصت في نوم عميق.

استيقظت على صوت زوجها يوقظها لتنهض كي تصلي الفجر، وأيضًا لكي تقوم بمهامها اليومية، كانت منهكة من التفكير تشعر بصداع خفيف، ورغم ذلك لابد أن تنهض فمن غيرها يقوم بتحضير الفطور وإيقاظ الطفلين، وتوصيلهما إلى المدرسة، ثم ترتيب بيتها وتجهيز الغداء و.و.، مسلسل يومي لا ينتهي ولن ينتهي،ضغطت على جبهتها برفق وذهبت لتتوضأ، وبعد أن أنهت المتطلبات الصباحية وبقت وحيدة في البيت، اتجهت إلى حاسوبها تحتضن مدونتها التي سجلت فيها ملاحظات المحاضر أثناء الجولة الأولى، شرعت في البحث عن معلومات كافية تمدّ ملخصها الذي طلبه منها في لقائه الأخير معها،بعد رحلة بحث مكثفة وقراءة متأنية في تطوير الذات، علاوة على تحميل أبحاث هذا المحاضر لتطعم ملخصها ببعض من أفكاره وآرائه، فمن الأولى أن تقدم ملخصًا يخدم فكره وينبع من تفكيره، أغلقت المدونة وقد شعرت بإرهاق ذهني فنظرت إلى ساعة الحائط، لقد أوشكت على الحادية عشرة صباحا، أغلقت حاسوبها سريعا ووضعت بجواره مدونتها ونهضت تستكمل متطلبات يومها المعتادة.

بعد انتهاء الغداء وانطلق طفليها للمذاكرة، رافقتهما لتساعدهما في إنهائها، ثم تركتهما أمام التلفاز قبل أن يتجها إلى النوم، أما زوجها انصرف إلى الشركة لإنهاء بعض أعمال هامة كما عادته يتركها وحيدة إلى منتصف الليل، حتى وإن بقي في المنزل فهو غائب عنها بعواطفه وفكره لا يشاركها في أي شيء، ولا يهتم بوجودها من الأساس، تلتزم الصمت وإن كانت تشعر بالفتور والملل،لكنه اتقاءً للسانه السليط، وصوته العصبي، وتجريحه لكرامتها باستمرار، لا يراعي مشاعرها ولا يتوانى عن إهانتها كأن صمتها وتلعثمها أمامه يدفعه للتسلط أكثر وتبرير أفعاله المهينة، يرى أن الصمت والإذعان رسالة واضحة للإقرار والاعتراف دون اعتراض.هي وحيدة أيضًا في شجرة الأهل، فرع يتيم نبت وحيدا هناك في طرف الشجرة، أبوها مشغول بزوجته وأولادها، غير أن أمها تشاجرت مع شوقي منذ سنوات وأقسمت ألا تدخل بيتها ثانية طالما رفضت أن تطلق من هذا الرجل بسبب تطاوله عليها،أما جدتها فهي عجوز مسنة لا تخرج من بيتها، تزورها كل حين بطفليها لترعاها، بعد أن كلفت عمة طفليها أن تعتني بها إذا غابت عنها.كذلك هذه العمة لا تدخل بيتها إلا في الأعياد والمناسبات، فبعُد كل من حولها وبقيت وحيدة سواء أبت أو شاءت.فتحت حاسوبها الرفيق الأمين، ووقفت أمام المرآة الصغيرة بجوار حاسوبها تمسك بمدونتها في يديها تبتسم ابتسامة خفيفة محاولة تقليد حركات ذاك المحاضر، سحبت كرسيا صغيرًا وقبل أن تجلس تذكرت قدح القهوة

الملازم له في كل محاضراته، فأسرعت إلى المطبخ تصنع واحدًا لتكتمل اللوحة التقليدية، عادت تمسك مدونتها بعد أن ارتشفت قليلا من القهوة رافعة رأسها إلى أعلى في ثقة وفخر، تتحرك في الغرفة بخفة ورشاقة تقرأ الملخص بأسلوب هادئ متفادية التلعثم.تجربة أولية لتقمص شخصية المحاضر، وكيف لا تتقمص حركاته وهي من ظلت لمدة ثلاثة أسابيع مركزة النظر ومنغمسة التفكير في كل ما يقوله ويصدر منه.

ضحكت فرحة، أدركت أنها تشبه الطفلة الصغيرة التي تقلد دون تفكير أو تصنّع.لأول مرة تشعر أنها اندمجت مع هذه الشخصية وتشربت حركاته وانفعالاته، لقد توغل إلى شخصيتها وتسلل إلى عقلها وتواصل مع تفكيرها. فتح زوجها باب الغرفة بغتة على غير توقع،فانتفضت مذعورة، حدق إليها ساخرًا وقال:

-ما بك أجننتِ ؟!أراكِ تضحكين وحدك؟!.

ارتبكت ولم تجد إجابة فصمتت، نظر إليها بريبة دون أن ينطق،ولكي تقطع هي هذه النظرة سألته:

-هل أحضر لك العشاء؟!.

أجابها:

-لا. لكن أريدك في غرفة النوم قليلا.

تبـــدلت ملامـــح وجههـــا للضـــيق وامتعضـــت معـــدتها، أومـــأت برأسه دون أن تنطق.

تعلـــم مـــاذا يريـــد منهـــا اتجهـــت إلـــى غرفـــة النـــوم متجهمـــة تقـــدم قـــدمًا وتـــأخر أخـــرى، شـــعور بالإهانـــة والـــذل حينمـــا تكـــون مثـــل جارية كل مهمتها إرضاء شهوات هذا المتغطرس.

(18)

كانت الساعة السابعة مساء قبل بدء اختبار التصفية بساعة واحدة،حالة الارتباك الممزوجة بتحدٍ سيطرت على يمنى وانتابها شعور بالتوتر محاولة تجرع جرعة شجاعة تستجمع أشلاء قوتها، كلما اقترب الموعد تزداد ضربات قلبها فتصر على المقاومة ومصارعة هذا الشعور الطاغي بالضعف، ألقت بالورقة التي في يدها على منضدة الحاسوب، قد سئمت من تكرار قراءتها حتى حفظت مضمونها تخشى التلعثم وتحشرج الكلمات في حلقها، دقت الساعة تمام الثامنة، كانت مع الحضور ينتظرون طلّة اسم المحاضر، بالفعل هلّ اسمه، بعد دقيقة كان قد فتح الكاميرا مبتسما بأناقته المعتادة وبقسمات وجهه الهادئة، يمسك في يده ورقة وقلم وضعهما على منضدة الحاسوب وسحب كرسيا وجلس أمام المنضدة،حدق إلى حاسوبه لحظة وابتسم، ظلّ صامتا بضع دقائق يسجل شيئا ثم رفع بصره للكاميرا مرسلا ابتسامة هادئة وقال:

-السلام عليكم أيها الحضور الكريم. إليكم أيها الجمع الراقي، كم سعدت بكم وباستفساراتكم في الجولة الأولى، وكلي أمل أن نتقابل مرة أخرى في الجولات القادمة.

صمت برهة واسترسل:

-الليلة موعدكم مع اختبار التصفية للجولة الأولى، سيمنح لكل مشترك دقيقتين يقدم فيهما ملخصه عن الجولة

الأولى، ونظرًا لأن العدد كبير سيقسم على مدار يومين، المجموعة الأولى ستنتهي عند المشترك رقم خمسين.

كان هذا الرقم هو اسم يمنى، فابتسمت فرحة، هذا الرجل دوما يشعرها بالثقة، احترامه وتقديره لها يجعلها مثل الفراشة الربيعية، مشاعر وأحاسيس تتعارك داخلها فرحة معبقة بروائح الانتشاء واللذة.

وأخيرا أشار بيده لبدء الاسم الأول لالتقاط لاقط الصوت، كانت تحدق إلى الشاشة بتمعن لترى انطباعات وجهه عند نهاية كل متحدث، لم تلاحظ غير أنه يكتب شيئا في الورقة التي أمامه كلما أنهى متشارك حديثه، وما أن شعرت باقتراب دورها للتحدث اجتاحها خوف مفاجئ يدب في داخلها مرة أخرى، تشعر باختناق وتوتر، ضربات قلبها سريعة مع لفحة الاحمرار التي لسعت وجهها فصببته عرقا، لجّ لسانها بالاستغفار والتسبيح كي تهدأ قليلا، وبعد دقائق قليلة حان دورها، ضغطت على لاقط الصوت بيد ترتعش متصنعة الشجاعة، ما زالت لسعة الخجل تلفح وجهها، أمسكت بالورقة وشرعت تقرأ، لا تشعر بأي شيء حولها تماما، ولا تدري كيف تقرأ الآن ؟!

،حتى أنهت وقتها، فتوقفت عن القراءة، كل هذا تفعلها بطريقة آلية، أغلقت لاقط الصوت و تنهدت تنهيدة ارتياح مع إلقاء نظرة على وجه المحاضر لعلها تستشف منه انطباعه عنها، أو تستنبط من ابتسامته رسالة مشفرة تفك رموزها كي تريح ارتباكها، لم تلاحظ شيئا غير أنه كتب

شـــيئا، مركـــزا فـــي أصـــواتهم فقـــط دون أن يرفـــع نظـــره عـــن الورقة التي أمامه.

ضـــربات قلبهـــا كانـــت ســـريعة جـــدا، فهرعـــت إلـــى المطـــبخ ترتشـــف بعـــض المـــاء، وعـــادت مهرولـــة تحـــدق فـــي الحاســـوب وتتـــابع ســـير الامتحـــان. ظلـــت متســـمرة فـــي مكانهـــا تنتظـــر منـــه رســـالة لتطمئنها،تعطيهـــا بشـــرة أمـــل، لكـــن الوقـــت قـــد انتهـــى، وانصـــرفت أســـماء الجمـــع، ولـــم يرســـل لهـــا شـــيئا، فشـــعرت بالإحبـــاط والقلـــق، ومكثـــت ســـاعة تنتظـــره، لعلـــه يرســـل لهـــا رســـالة عبـــر البريـــد الالكترونـــي أو عبـــر الفـــيس بـــوك لكنـــه لـــم يفعـــل هـــذا أيضًـــا، أغلقـــت الحاســـوب ونهضـــت مكتئبـــة، ،دثـــرت أولادهـــا فـــي فراشـــهما واتجهـــت إلـــى غرفـــة نومهـــا، ألقـــت رأســـها علـــى الوســـادة شـــاردة حزينـــة وأطلقـــت العنـــان لحدســـها فطغـــا توقعهـــا كمـــا تـــراه، لقـــد فشـــلت فـــي أول اختبـــار كانـــت تعلـــق عليـــه آمـــال عديـــدة، لقـــد خـــذلت أســـتاذها فـــي أول جولـــة، وهـــو الـــذي منحهـــا بريـــق أمـــل وقـــدرها واحتـــرم ذاتهـــا،، هكـــذا هـــو الحـــظ معهـــا لـــيس حليفهـــا كمـــا ترجـــو، دومـــا مخـــالف معها،يعانـــدها وكأنـــه شـــريك مـــع الأحـــزان والأوجـــاع. ذرفـــت دمعـــة ســـاخنة بائســـة علـــى وجههـــا البـــارد، أغمضـــت عينيهـــا فـــي بـــطء ، علّهـــا تهـــرب مـــن صـــورة ذاك المحاضـــر التـــي لاحـــت أمامها،أفاقـــت علـــى خطـــوات مجـــيء زوجهـــا، فمســـحت دمعتهـــا ســـريعا ووضـــعت الوســـادة علـــى رأســـها، لتتـــوارى عنـــه. فـــي صـــباح اليـــوم التـــالي كانـــت شـــاردة امتثلـــت لتوقعهـــا، واستســـلمت لواقعهـــا، فهـــي معتـــادة علـــى ذلـــك، وقبـــل أن تنصـــرف لتحضـــر أولادهـــا مـــن المدرســـة جاءهـــا تنبيـــه باســـتلام

رسالة على هاتفها، التقطته وفتحت الرسالة فتهلل وجهها سعادة، لقد أرسل لها رسالة عبر الهاتف مضمونها (مبارك الصعود للجولة الثانية) تعلم أنه المرسل رغم أن الرقم غير مسجل لديها على الهاتف، لكن مثله لا يقف أمامه معرفة رقمها، وخاصة قد أرفقت رقم هاتفها في بيانات التقدم للدورة التدريبية.

ما أجمل أن يأتي الغيث في لحظة جفاف قاتلة، ما أروع شعور السعادة في لحظة يأس عصيبة، ظلت سعيدة طوال اليوم حتى زادت سعادتها حينما أرسل لها رسالة أخرى:

-سأنتظرك غدا في تمام العاشرة صباحا في الغرفة الصوتية.

شعرت بحلاوة تعبها وتركيزها معه طوال مدة الجولة الأولى، ها هي الآن تقطف أو وردة في بستانها الأخضر الذي بدا ينبت داخلها.ظلت ليلتها منغمسة في التفكير، تنتظر الغد بشوق وتلهف، تنتظر أن تسمع منه كلمات التقدير ونظرات الاحترام التي تلمحها في عينيه، لم تعتد أن تعامل بهذه المعاملة ولا تقدر كما يقدرها هذا الرجل، هو أعطاها شعورا كانت تفتقده، لم تذق طعمه من قبل، شعور لذيذ ممتع يغذيه هذا التقدير والرقي، بدأت الابتسامة تشرق على وجهها، تسطع في وجنتيها، ترسم على وجهه معنى الرضا والارتياح.
نهضت هذا اليوم غير أي يوم مر عليها من قبل، تتراقص بخفة ونشاط، نحلة دؤوب تتألق في خليتها،حتى زوجها

الـــذي لا يهـــتم لأمرهـــا ولا يبـــالي بمشـــاعرها، لاحـــظ هـــذا التغييـــر فنظـــر إليهـــا نظـــرة قلـــق وشك،ســـرعان مـــا غـــضّ الطـــرف عنهـــا وانصـــــرف لعملـــــه. عـــــادت بعـــــد توصـــــيل أولادهـــــا للمدرســـــة، وانطلقـــــت إلـــــى حاســـــوبها تفتحـــــه، الســـــاعة لا تـــــزال الثامنـــــة، لكنهـــــا ســـــتنتظره إلـــــى العاشـــــرة، ســـــتحمل كتبـــــه التـــــي تمـــــلأ المكتبـــــات الالكترونيـــــة وتشـــــرع فـــــي قـــــراءة واحـــــدا منهـــــا، تريـــــد أن تعـــــرف فكـــــره، تـــــدرس أفكـــــاره وآراءه.يشـــــغفها تميـــــزه وهالـــــة الجاذبيـــــة التـــــي تشـــــع حولـــــه. كـــــل حـــــين تنظـــــر إلـــــى الســـــاعة وتبتســـــم، حتـــــى أوشـــــكت علـــــى العاشـــــرة، انـــــتفض قلبهـــــا وضـــــغطت علـــــى رابـــــط الغرفـــــة، فوجدتـــــه ينتظرهـــــا ويبتســـــم، فـــــزاد ارتباكها وارتعاش مفاصلها. التقطت لاقط الصوت قائلة:

-السلام عليكم أستاذ صالح .

فرد التحية مبتسما هادئا واسترسل:

-لم يخب حدسي ولن يخيب أبدا.

أدركت مراده فقالت:

-الشكر لك أستاذي.

فقاطعها:

-صـــدقا يمنـــى أنـــت أقـــوى منـــي، وداخلـــك ثقـــة وطاقـــة أكبـــر بكثير.

حملقت في الشاشة مستغربة ما يقوله تهمس في داخلها:

-هذا الرجل يبالغ كثيرا، هو لا يعلم مع من يتحدث؟!.

استطرد وهو يعلم ما يدور في خلدها:

-أعلم أنك لا تصدقين ما أقوله لكِ.

صمت دقيقة مطأطأ الرأس، فأشعرها بالخجل لأنه قرأ ما همست به في نفسها.رفع رأسه بنفس ابتسامته واستكمل:

-منذ عشرين عاما كنت في الثلاثين أو يزيد قليلا أعمل مهندسًا في بلد أوروبي، سافرت بزوجتي وابنتي، ذات مرة أرشدني صديق إلى ندوة ستقام في مكان عملي عن هذا المجال عنوانها تنمية قدرات العاملين) ولأن طموحي يزداد يوم بعد يوم كنت من أوائل المشاركين، أحدثت داخلي رجة وهزة لزيادة طموحي وتنمية مهاراتي، فتقدمت لأول اختبار بعد حضور الندوات الأولى، و بجوار دافع الطموح نما سلوك الغرور والأنا، فأصبحت العلاقة بينهما طردية تتعالى بمؤشر يرتفع بمعدل جنوني، فلم أر إلا أنا وأنا وأنا، كانت صدمة وزلزال عنيف هزني حينما علمت إخفاقي في أول اختبار، تصورت أن الأمر كله بيدي، لا يزيد عن خليط من الثقة الزائدة وحسن اللباقة في التحدث، فضغت نرجسيتي وعرت ذاتي، فلم يغفل عن هؤلاء الخبراء أن يسددوا لي صفعة قوية، طرحتني أرضا.ولأن العود قوي والرغبة في إثبات الذات شديدة أخذت بالمثل الذي يقال (الضربة التي لا تقتلك تقويك) تقدمت إلى الامتحان مرة أخرى وأخفقت للمرة الثانية والثالثة، حتى انطلقت في المرة الرابعة.

فلـــمَ تســـتغربين حينمـــا أقـــول لـــك أنـــك أقـــوى منـــي! من الأقوى الآن ؟!

قاطعته قائلة:

-بل أنت، أنت حاولت وحاولت لتصل لهدفك.

أومأ برأسه نافيا وقال:

-القـــوي مـــن أدرك قدراتـــه وقـــاس عليهـــا، ثـــم انطلـــق مـــن خلالهـــا، وتغلـــب علـــى صـــراعه الـــداخلي وانتصـــر عليـــه،الطموح رغبـــة جامحـــة تـــدفع، أمـــا الخـــوف صـــراع محتـــدم يحســـم للأقـــوى، أنـــتِ الآن فـــي معركـــة ضـــارية أوشـــكت أن تحســـم لـــك، أنـــت الطـــرف الأقـــوى فـــي تلـــك المعركـــة وإن كنـــت لا تقتنعـــين بمـــا أقولـــه الآن، لكنهـــا خبـــرة ســـنوات وسنوات.

سألته:

-هـــل الجـــولات الـــثلاث القادمـــة ســـيكون فـــي نهـــايتهم اختبـــارات أيضًا؟!.

أجابها بهدوء:

-أجل .

-وهل تلخيص مثل الجولة الأولى ؟!.

ربما تلخيص وربما.

-ربمـــــا مـــــاذا؟!، وبـــــدا علـــــى صـــــوتها القلـــــق.

لا تقلقـــي يمنـــى ولا تســـبقي القـــادم، اتركـــي كـــل اختبـــار إلـــى حينه،

سألته:

-ومتى بدء الجولة الثانية .

-بعد أسبوع في نفس يومي الجولة الأولى ونفس الميعاد.

ابتسمت فرحة وقالت:

-إن شاء الله ستجدني أول الحضور.

أومـــأ برأســـه مؤكـــدا علـــى كلامهـــا، حـــدقت إلـــى الســـاعة، أوشـــك موعـــد تحضـــير الغـــداء ومجـــيء أولادهـــا فبلعـــت ريقهـــا خجلـــة أن تســـتأذن منـــه، رغـــم أن حديثـــه يبهرهـــا لا تشـــبع منـــه، لكـــن تهكـــم وعصـــبية زوجهـــا إذا تـــأخرت عـــن حـــق مـــن حقوقـــه وأولهمـــا عمـــل الطعـــام يكـــدر عليهـــا أي إحســـاس ويفســـد عليهـــا أي ســـعادة، شـــعر أســـتاذها بـــأن صـــمتها رســـالة لطلـــب الإذن بالانصراف، وخجلها يمنعها من ذلك، ابتسم بامتنان قائلا:

-إلى اللقاء أستاذتي يمنى في الجولة الثانية إن شاء الله.

أومأت برأسها وشكرته ثم انصرفت مسرعة تنهي أمورها.

(19)

مضى الأسبوع الأول من الجولة الثانية ومازالت يمنى تتابع هذا المحاضر في تركيز واهتمام تدون كل ملاحظاته في مدونتها الورقية، بدأت تشعر بتوسع في مدارك تفكيرها، وتنكشف أمامها حقائق ومعلومات لم تكن تعرفها من قبل، أدركت أنها في عالم جديد مليء بالعمق والاستنباطات وقائم على دراسة ظواهر واستنتاجات واحتمالات عديدة، كانت تذهل من توغل ملاحظات المحاضر لمكامن النفس واكتشاف قدراتها الداخلية، ورغم أن الطريق بدأ يجذبها متعته ومعرفة أسراره، كان في نفس الوقت ينهكها وعورته، وتلهث من شدة تسلقه فيبلغ الإرهاق منها مبلغه، لكن روح تحدٍ تدفعها للمواصلة والمواظبة على استكمال الطريق الذي بدأته، كانت تجذبها دائرة التفكير إلى منطقة الضوء التي بدأت تسطع داخل خلايا التفكير، فأضحت تعاني من صراع آخر يحتدم داخل العقل ويشتد كلما زاد التيقظ والتركيز، ظلت على هذا المنوال إلى أن انتهت الجولة الثانية، وكما كان في نهاية الجولة الأولى اختبار، كان أيضًا في نهاية الثانية، وحدد له بعد غد، وحيث انخفض العدد إلى النصف بعد اختبار التصفية، كان عليها أن تجتهد وتجمع معلومات وتقرأ كتبا لتحصل على صورة متكاملة في العقل حول موضوعات الجولة الثانية لهذا بات ضروريا أن تنهض من قوتها الداخلية لتستعد للاختبار الثاني.

جاءت اللحظة التي انتظرتها وفي نفس الوقت ارتجفت منها، لم تصدق نفسها وهي واقفة تجيب على أسئلة أستاذها صالح شكري بطريقة متقنة وإن تلعثمت في بعض الأحيان لكنها استطاعت أن تثبت جدارتها على اجتياز هذا الامتحان، لم يكن امتحان إجابة أسئلة بقدر ما هو اكتساب ثقة وسرعة انتباه وتركيز.

قفزت في الغرفة كطفلة صغيرة فرحة تتوجها السعادة حينما أرسل لها ابتسامة هادئة بعدما أنهت إجابتها، ابتسامة محملة برسالة فهمت مضمونها (أحسنتِ).

انتابها إحساس جديد لأول مرة تشعر به، أحاطها بقوة فضمت ذراعيها تحوي هذا الشعور حتى لا يهرب منها، تريد أن تحتفظ به لمدة طويلة، إحساس دافئ خليط من ثقة وتحدٍ ورغبة في المواصلة.

كانت الجولة الثالثة، بعد اختبار الثانية مباشرة على مدار أسبوعين، في اليوم التالي كان العدد لا يصل إلى العشرين اسما حاضرا في الغرفة، جمعت عدتها المكونة من المدونة والقلم وشرعت في تدوين ما يمليه أستاذها عليهم من ملاحظات ومصادر للاستزادة والمعرفة، رغم مدة الجولة هذه قصيرة أسبوعين فقط لكنها مكثفة المعلومات تحتاج إلى تركيز ودراسة أعمق، مما أحدثت داخل عقلها صراعا صاخبا، أوصلها إلى إنهاك ذهني، أدى إلى أن تطرح عليه أسئلة قوية تنم عن لهث حول معرفة حقائق عن ما يشرحه،فأدرك أستاذها أنها تمر بحالة من حالتين إما حالة

نهم فكري يحتاج إلى إشباع فيلح إلى غاية المعرفة، وإما حالة صراع جديدة تخشى الفشل و تقاتله بجسارة، الآن هي في حالة صحوة فكرية تولد من رحم صراع متربص بها،هذا ما بدا له.

أراد طمأنتها فأرسل لها رسالة خاصة (أنت على الطريق الصحيح فلا تقلقي).

كانت رسالة السحر لديها أنعشتها وجددت قوتها ورغبتها مرة أخرى، أخمدت نار الصراع داخلها، وأثلجت صدرها، تيقنت أنه يفهمها دون أن تبوح،ويدرك ما تشعر به الآن وكأن رابط عقلي يربط بينهما، ومميض من نور الإدراك يوحد بين تفكيرهما.

ظلت على مدار الأسبوعين تتابع بشغف وتجمع المصادر والمعلومات الهامة عن موضوعات هذه الجولة، حتى انتهت وحدد موعد الاختبار.

تعلم أن الجولة متينة ليست هينة، كذلك اختبارها، وفي اختتام المحاضرة الأخيرة طلب منهم جمع عدة مصادر ونسج حولها بحثًا مميزا بجهودهم وآرائهم وهذا ما سيقدم كاختبار للجولة الثالثة، لم يترك الفرصة تمر دون تأكيده على التركيز و الثقة والتطوير.

في صباح اليوم التالي شرعت في جمع مصادر بحثها وإحكام نقاطه الأساسية، وبعد يومين استطاعت إنهاء البحث قبل الاختبار ببضع ساعات فغمرها شعور بالفخر،

أضحت أكثر ثقة بنفسها وأشد شجاعة، كان التغيير جليا وهي تستعد لقراءة بحثها وكذلك مناقشة مصادره الأساسية.

في تمام الثامنة فُتحت الكاميرا، كان واقفا أمام شاشة العرض بعدما ألقى التحية وأشار بالبدء يصغي إلى المتحدث باهتمام ناظرًا إلى الأرض، يسمع ويدرس حركاتهم بأذنيه، يراقب ذبذبات أصواتهم بمنتهى الدقة والتركيز.

حينما حان دورها اعتدلت على كرسيها وقربت لاقط الصوت باتزان وثقة وشرعت في قراءة العناوين الهامة في بحثها قبل إرساله على بريده الالكتروني كما طلب منهم المحاضر، استوقفها عدة مرات يناقشها في مصادر البحث، وشمولية أفكاره وكيفية وضع وإدراج أهدافه.

كانت تجيب بمهارة واستيعاب وإدراك، رغم ذلك كان ينتابها شعور بالرهبة، فيرتجف قلبها، فمن الطبيعي أن تشعر بذلك في رهبة هذا المحراب التعليمي.، أنهت قراءتها، وشكرته وأغلقت لاقط الصوت.

أحست بثمة تغيير جذري يتبلور بشكل متقن بدأ يطرأ على تفكيرها وسلوكها بوجه عام، فابتسمت تغمرها سعادة تدغدغ مشاعرها.

وقبل أن ينصرف الجمع أرسل لها رسالة خاصة كمكافأة وتقدير حينما وصلتها زادتها سعادة وامتنان كادت ترقص

طربا كان مضمونها (أبدعت سيدتي، أنا سعيد بك جدًّا، جدًّا).

ساد صمت لدقائق ثم تحدث إليهم قائلا:

-الجولة القادمة إن شاء الله لن تكون هنا في هذه الغرفة الصوتية في ذاك العالم الافتراضي، بل في المركز نفسه المهتم بهذه الدورة التدريبية.أي ستكون وجها لوجه.

صمت برهة واسترسل:

-أعلم أنكم من دول مختلفة لذلك سيرسل أسماء من صعدوا للجولة الرابعة إلى المراكز التدريبية المقامة في دولة كل واحد ، وأيضًا سيرسل طلب الالتحاق عبر البريد، الآن أي استفسار آخر يرسل على بريدي الإلكتروني، استودعكم الله.

حينما سمعته يخبرهم عن مكان الجولة الرابعة غمرها الفزع وانتابها شعور الضيق والأسف، يا له من شعور هدم كل ما شيدته في خيالها من أماني وأحلام، همت واقفة تضرب يدها في الأخرى ضيقا واتجهت إلى حاسوبها وأرسلت له رسالة خاصة (استسمحك أن تدخل الغرفة غدا في العاشرة صباحًا)، حدقت إلى الشاشة تراقب انطباعه، لمحت ابتسامته وأومأ برأسه وأرسل لها (تأمرين سيدتي).

أخجلتهـــا رســـالته فابتســـمت، ظلـــت شـــاردة مســـتمتعة بهـــذا الشـــعور، أغمضـــت عينيهـــا فغمرتهـــا حـــرارة شـــديدة نتيجـــة السعادة التي تتراقص حولها الآن.

(20)

عندما بدأت تباشير الصباح تلوح في السماء كانت يمنى تستعد ليوم جديد يختلف عما سابقه من أيام، نهضت مرحة منتعشة عن سجادة صلاتها،وإن كان شعور الضيق الذي انتابها أمس يجتاحها من حين إلى أخر، طردته بإصرار واتجهت إلى غرفة أولادها توقظهم بابتسامة واحتضان، حملتهما بإعياء شديد كنوع من التدليل وأدخلتهما الحمام ليستعدا للذهاب إلى المدرسة، لم تكن في هذا اليوم مهيأة لأن تتحمل أي كلمة أو نظرة من ذاك الزوج ليعكر مزاجها الرائق، أنهت تجهيز الفطور واتجهت مسرعة تمسك الطفلين لتوصيلهما إلى مدرستهما.

بعد مرور ساعتين كانت جالسة أمام الحاسوب تنتظر دخوله الغرفة الصوتية، هذه المرة انتظرته من الثامنة صباحا تتمنى لو يستثنيها من تدريبات الجولة الرابعة التي ستقام وجها لوجه،وتكون في نفس مكان الجولات السابقة في ذي الغرفة الصوتية.

قبيل العاشرة هلّ اسمه فارتجف قلبها واتسعت ابتسامتها، فتح الكاميرا وبدا هادئا جالسا على الكرسي يرتشف القهوة بتأنٍ، ألقى عليها التحية:

-السلام عليك أيتها الكريمة.

فردت بخجل ممزوج برقة:

-وعليك السلام أستاذ صالح.

-قبل أن تعلميني سبب اجتماعنا هنا، أودّ أولا أحييك على هذا التقدم المبهر، أعلم أنك بذلت جهدا رائعا ولن تجني ثمرة هذا الجهد إلا بالممارسة والتطوير وتوصيله للآخرين.

انتفضت فزعة من كلامه وقاطعته:

-أعتذر على المقاطعة، لكني لا أستطيع أن أمارس هذا العلم كما تريد ، بمعنى أدق، صعب جدا أن أخرج من هذا البيت.

بدا عليه الاستغراب وتساءل:

-لمَ؟!.

-لأن زوجي لن يقبل أن أخرج من البيت بتاتا، فكيف أذهب لأتدرب كما هو مطلوب في الجولة الرابعة.

-ولماذا يرفض؟!.

-لا أعلم.

-يمنى هل أنت ستفعلين شيئا خطأ.

-كلا .

-هل هذا سيؤثر على واجباتك كزوجة؟!.

-لا.لأني سأحاول أن أوفق بين واجبات البيت والتدريب في المركز.

-أين تسكنين؟.

-في مصر الجديدة.

-رائع، أنت قريبة من المركز الرئيسي، المسافة لا تتجاوز ربع ساعة.

صمتت لحظة تفكر، فاسترسل قائلا:

-إذن ما المشكلة ؟!.

-المشكلة عقلية زوجي، لن يعطني فرصة أن أتحدث معه ولن يقتنع أيضًا بكلامي، صدقني أنا أعرفه جيدا.

صمت لحظة وبدا على وجهه الجدية والصرامة وقال:

-وماذا تعلمت إذن مما شرح في الجولات السابقة أكان كلاما نظريا كتلاميذ الجامعات للامتحان فقط ؟!، الجولات هذه تطبيق وليس كلام إنشاء يقرأ من باب الثقافة، فلتبدئي بنفسك و لتكتشفي قدراتك.

حملقت في الشاشة مندهشة ، هذا الرجل دوما يورطها هكذا، يرميها في البحر ويتركها تسبح وحدها، صمتت ولم تجد إجابة تقال.

-كلام أخير يمنى الجولة الرابعة ستبدأ بعد أسبوعين من الآن، سأنتظرك في تمام العاشرة صباحا في هذا العنوان...إلى اللقاء أستاذتي.

تسللت الهواجس لنفسها محاولة صنع دائرة احتدام لتشعل معركة الصراع الذي ما يقارب أن يهدأ حتى يعاود الكرة،يعود ليشتعل أكثر وتستعر جذوته، عاد الصراع بعد ما ظنت أنه خمد أو ربما تلاشى إلى الأبد، هذه المرة اختبار مصيري بالنسبة لها، معركة تحقيق حلم بدأ يتكون ويتجمع من بقايا أحلام محطمة، لا.لن تترك هذا الحلم يجهض كما جُهضت أحلام سابقة، ستدافع عنه بكل قوتها ليحيا، ستحتضنه بوجدانها ليكتمل، شعرت بشلل في تفكيرها، ليس لديها الآن خطة محكمة كي تواجه هذا الكائن المسمى (زوجها)، قررت أن تؤجل المواجهة لأسبوع قادم كي تستعد لها ولأول مرة تشعر أنها تريد وترغب، هي الآن صاحبة المواجهة ليست المدافعة، فرق بين الهجوم والدفاع، بين أن أسدد ضربة قوية وبين أن أتلقى هذه الضربة.

عندما دخل زوجها المنزل شعرت بالخرس، وفقدت القدرة على التفكير، حاولت أن تتناسى وتؤجل هذا الأمر لحينه، فلا يزال أمامها أسبوعان ، حينما تتهيأ الفرصة المناسبة ستحدثه في الأمر، ما أصعب أن تطلب منه شيئا!فما بال أنها ستطلب أن تذهب إلى مركز تدريب، وتتدرب على إثبات ذاتها وقدرتها وربما لو نجحت في هذه الجولة ستصبح يوما ما مثل أستاذها المحاضر، ضربت جبهتها بقوة تهمس في نفسها:

-أفيقـــي أيتهـــا المجنونـــة، مـــاذا ستصـــلين بهـــذه الأحـــلام الهوجـــاء؟!، كفـــاك أوهامًـــا وتعلقًـــا بحبـــال باليـــة،أفيقي قبـــل أن تسقطي من فوق قمة الوهم هذه!

كلمـــا استســـلمت لهـــذا الهـــاجس، راودهـــا جنـــين الأمـــل الـــذي يتحـــرك داخلهـــا بإلحـــاح، كأنمـــا يتبلـــور بـــبطء وتريـــث، شـــعرت بلحظـــة محـــاق تكـــاد تختنـــق، ينـــتفض قلبهـــا كلمـــا انتهـــت المهلـــة التـــي حـــددتها لبدايـــة الهجـــوم، بعـــد مـــرور أســـبوع حـــائرة متـــرددة، أصـــرت وقـــررت، الآن وفـــي هـــذه اللحظـــة، عـــدلت مـــن هنـــدامها وتصـــنعت ابتســـامة ثقيلـــة وتقـــدمت بخطـــوات غيـــر إرادية كفارس شجاع يتجه لحسم معركة تراها مصيرية.

الجزء الثالث

(21)

أحيانًا يدفع التطلع الطامح والرغبة المحفزة على الإصرار والتمسك بحق من حقوق مسلوبة،مولود أمل وانعتاق داخل النفس يبعث على الإيحاء، وميض النور يدبّ في خلايا التفكير، صراعات محتدمة في خوالج هادئة، كل هذه مقدمات ربما لتغيير جذري في أفكار وسلوك، في تحاور وتعامل، في عزم وحزم.

إلحاحٌ في إثبات الأنا والذات، وبحث عن قدرات وطاقات مخزونة تثور كل حين، تحتاج إلى انفتاح وإزالة قشور سلبية تحيطها، ولنزع هذه القشور يجتاحها صراع محتدم تحتاج إلى قوة أكبر لخوض المعركة.

احتساء كأس قوة ممزوجًا بجرعات شجاعة،لم يكن سهلا على يمنى وهي تتقدم إلى غرفة المكتب التي يجلس فيها زوجها،وقفت أمام الباب ترتجف وجلة، لا يزال التردد والخوف يرافقانها رغم تأثير جرعة الشجاعة التي بدت عليها.

حزمت أمرها فلمعت نظرة تحدٍ من عينيها، تصنعت ابتسامة متكلفة باردة لم تعتدها،إن لم تكن الابتسامة من القلب نابعة من الإحساس فلا داعي لها، هي الآن تحتاجها لتخفف وطيس معركة تنذر الآن وتعلن نذير بداية.

طرقت طرقات خفيفة على باب المكتب تكتم أنفاسها، فسمعته يأذن لها بالدخول، تنهدت تنهيدة إخراج النفس المكتوم، وفتحت الباب متقدمة نحوه بخطوات جريئة أو ربما تتصنع الجراءة.

كان ينظر إلى بعض ملفات أمامه دون أن يرفع عينيه ليراها.

تنحنحت في ترقب وحذر وظلت صامتة ساكنة.

رفع رأسه وحدق إليها بنظرة باردة قائلا:

-نعم؟!.

صمتت برهة تستجمع قوتها المبعثرة، لملمت بعضها وقالت متصنعة ابتسامة ثقيلة:

-أريد أن أتحدث معك قليلا.

ترك القلم من يده وارتخى على المقعد ناظرًا بغطرسة مشيرًا إلى الكرسي أمامه:

-تفضلي.

خففت ثقل الابتسامة مع تنهيدة شبه ارتياح وجلست على الكرسي تفرك يديها في توتر، ساد الصمت لحظات ثم رفعت عينيها لتبدأ الحديث فلا مفر الآن، وإن كانت في لحظة تجمعت فيها كل الأحاسيس المختلفة من رهبة وخوف وإصرار وأمل.

وجدته يحدق إليها مستغربًا، ربما لاحظ الابتسامة التي رسمتها على وجهها، أو صنع في خياله مغزى طاغٍ يفسره ذاك الثوب الرقيق الذي تلبسه يحدد كثيرا من مفاتنها.

أو سرح في هذا الشعر البني المنساب على كتفيها، تلك احتمالات جالت في خاطرها مستشفة نظرته المحدقة إليها.

اجتاحها شعور بالقوة فتصنعت مسحة من الدلال ممزوجة بقليل من الخنوع، شرعت في الحديث قائلة:
-تعلم يا شوقي أنني أجلس ساعات كثيرة وحدي، مما يجعلني أجلس كثيرًا أمام الانترنت وهذا يضايقك.

وسكتت.

زادت نظرته المتمعنة يغلفها الاستغراب، طريقتها في التحدث جعلته متصلبا صامتا، لمحت هذا في عينيه فزادت من جرعة التأثير قليلا حتى لا تنقلب للضد إذا زادت عن حدها، تدرك جيدا تقلباته المزاجية، ربما في لحظة تبدل نظرته الحائرة هذه لحمرة غضب فيضحى كالثور الهائج.

من الأولى أن تتسلل له بخفة وتريث،وتسيطر على مكامن قوته،هو الآن في بداية تخدير نفسي، ربما إشارة نصر لصالحها، نادته بصوت رقيق:

-شوقي أنت معي؟!.

أفاق من حالة التأثير المخدرة متصنعا الصرامة:

-وما المطلوب مني؟!.

استرخت على الكرسي قليلا وتملقته بنظرة وابتسامة أرق من السابقة ، محاولة إذابة جبل الجليد الذي يفصل بينهما،وضعت يديها تحت ذقنها وبالتدريج بدأت دائرة الأحاسيس المتفاوتة تهدأ رويدا، رويدا، تمكنت من إمساك زمام أنفاسها وهدأت دقات قلبها قليلا واستكملت حديثها قائلة:

منذ أيام قرأت في موقع التواصل عن مركز تدريب ليس بعيد عن البناية التي نسكن فيها هذه.

وصمت تنتظر ردة فعله على كلامها.

كان صامتا محدقا يمد شفته تنذر ببدء تغير نظرته، أدركت هذا فأقدمت تطرق الحديد وهو ساخن واستطردت قائلة:

-المركز هذا يقدم عرض مغرٍ جدا تخيل.

واقتربت أكثر.

ابتعد عنها راجعا للخلف مسندا ظهره على الكرسي، تشير نظرته إليها بأن تستكمل.

توجس قلبها وشعرت بالقلق، نهضت عن الكرسي تتحرك بخفة ورشاقة مقلدة إلى حد ما أستاذها المحاضر، وقفت تلامس أطراف أصابعها بدلال مصطنع مطأطئة الرأس، وهو يراقب كل هذه الحركات لا تعلم هل صمته هذا وصبره عليها ناتج عن تأثير هذه الرقة والنعومة المصطنعة أم

استغرابه من حركاتها التي لم تفعلها من قبل قد ألجمت لسانه وزادت من حيرته،فكلتا الحالتين هو صامت منصت لها.

ابتسمت تحدق إليه تنتهز فرصة صمته واستطردت:

-اشترطوا من يتفوق في الدورة التدريبية بجدارة سيعين بمبلغ مجزٍ محاضرًا في هذا المركز،حقيقة مبلغ لا يقاوم ثلاثة الآف.

وحينما استشعرت استدراجه للحديث زفرت الصفعة الأخيرة:

-لهذا فكرت أن أقدم وأشترك في هذه الجولات التدريبية.

وصمتت.ترقبه.

حدقت إليه تستشف ردة فعله، كان صامتا محدقا في الملفات التي أمامه وفجأة هاج وضرب بيده على المكتب يصيح فيها:

-وماذا أيضًا أكملي، أكملي؟.

انتفضت مذعورة تحشرجت الكلمات في حلقها فخرجت متلعثمة، ارتبكت فلم تجد ما تقوله، ظنت أنها على وشك الحسم وسيخضع لها تحت تأثير سلاحها الأنثوي، وسيوافق على طلبها، لكنه باغتها دون توقع وبدأ في استنزاف قدراتها ودفعها لنقطة البداية بعدما تجاوزت خطوات عدة في طريق الفوز.

نهض عن الكرسي مغتاظا غاضبًا تدفعه العصبية بقوة، اقترب منها وأمسك بذراعها المكشوف يغرز أصابعه فيه وقال بحدة:

-أنسيت نفسك وظننت أنني سأقبل أن تتركي بيتك وأولادك للتسكع في الشوارع بحجة التدريب وخلافه؟!.

دفعها على الكرسي، فانتفضت واقفة تحدق إليه مما جعلته يقف متصلبًا كالصنم لا يصدق نظرتها الغاضبة هذه، شبكت ذراعيها في بعضهما وتسمرت في مكانها.

بعد لحظات قليلة هدأت وقع الصدمة عليها وقالت:

-أخبرني عن أسباب رفضك؟!.

أجابها محاولا الهروب من نظرة عينيها المتصلبة:

-هذا قراري لا رجعة فيه!.

-إذن ليس لديك أسباب مقنعة.

رمقها بنظرة تتفحصها من أسفل إلى أعلى، يكاد لا يصدق أن هذه المرأة التي تقف أمامه وتحاوره الآن هي المرأة التي منذ قليل كانت ترتعب من نظرة عينيه، تكاد يغشى عليها إذا صاح فيها، أو احتدّ عليها، تتلعثم وتبلع لسانها إذا واجهها وأحاطها باتهاماته أو تأخرها بتلبية قراراته.

بادلها بنظرة حادة مستخدما أسلحته القديمة، أجابها:

-هـذا قـراري وعنـدك كـذا حـائط فـي المنـزل، اضـربي رأسـك فيها.

حركـت قـدميها بتـوتر لا تـزال تشـبك ذراعيهـا ومـدت شـفتها متعمدة إغاظته ثم أمالت برأسها وقالت:

-أراك مصرًّا على قرارك؟!.

اسـتفزته كلماتهـا فأمسـك ذراعهـا بعنـف وصـفعها علـى وجهها يتمتم بطريقة آلية:

-مـاذا تريـدين ؟!ألا تفهمـين يـا غبيـة، سـأعلمك الأدب طالمـا أهلك لم يعلموك كيف تتعاملين مع زوجك؟!.

أخفـت وجههـا مـن بطـش يديـه تكـتم دموعهـا أمامـه وأسـرعت تجـري إلـى غرفـة طفليهـا، ارتمـت علـى السـرير تبكـي وتشـهق، تحـاول أن تهـدئ مـن وقـع صـفعات يـده علـى وجههـا، اتجهـت إلـى المـرآة تنظـر إلـى وجههـا ودموعهـا التـي تـذرف بغـزارة، مسـحتها بحـدة وضـربت بيـديها علـى خزانـة الملابـس تنفـث قلـيلا عـن نـار البركـان الثـائر داخلهـا، جلسـت علـى السـرير تسـتجمع قوتهـا مـرة أخـرى وظلـت شـاردة تحـدق إلـى اللاشـيء بنظـرة إصـرار وتحـدٍ.فتح بـاب الغرفـة بقوة وقال:

-إياك وتشغيل هذا الحاسوب اللعين مرة أخرى.

وأغلـق البـاب منصـرفا إلـى مكتبـه، حـدقت إلـى البـاب المغلـق وظلت صامتة تكتم دموعها وتكبت الغيظ المشتعل داخلها.

(22)

هيمن عليها شعور لا تعرف له مثيل، شعور متراكم مكبوت منذ سنوات كثيرة، يحرق أحشاءها ويمزق قلبها، تتمنى لو تنهض وتدغدغ كل شيء أمامها،تصرخ، بأعلى صوتها:

-إنني إنسان، كبقية البشر، في داخلي قلب يشتاق لكلمة حانية أو لمسة دافئة، لكن الآن في داخلها بركان يغلي، ويتوغل في جسمها، نازعتها نفسها إلى أن تثأر لكبريائها، فهمت أن تفتح خزانة ملابس طفليها وتجمع متعلقاتهما الضرورية ثم تسلل خلسة إلى خزانة ملابسها وتلملم متعلقاتها الشخصية وتترك له المنزل وتذهب إلى بيت جدتها، تتمنى أن تفعل هذا ولو مرة واحدة تشعر أنها تستطيع على أن تتخذ قرارًا دون إذعان أو إخضاع.

حتى هذا القرار اصطدم بحقيقة تعجز أن تهرب من مواجهتها فهي واقع يضع رقبتها تحت الانقياد والطاعة، حاولت أن تتناسى أنها امرأة لا تملك مالا ولا عملا ولا شهادة تخرج من جامعة كي تحصل على عمل مناسب،كان يجب عليها أن تدرك هذا جيدا، فلا يوجد مصدر لسد احتياجاتها هي وطفليها إلا هذا الزوج، ولا تأمنه إذا تركت البيت هل سيرسل لها مالا أم لا؟!، ربما يستخدم هذا السلاح الاقتصادي لإجبارها على الرجوع والخضوع لكل شروطه وقراراته المستبدة،وكيف تنظر في وجهه بعدما

تعـــود ذليلـــة منكســـرة وقـــد جـــف مـــاء وجههـــا؟! ألا يكفـــي مـــا تشـــعر بـــه الآن. تخشـــى أن تتهـــور وتفعـــل فعـــلا أحمقـــا تنـــدم عليـــه بعـــد ذلـــك، ســـددت ضـــربات قويـــة إلـــى فخـــذيها كي تشفي غليلها، تمتمت في نفسها تضغط على أسنانها:

-تبا لتلك المقايضة الرخيصة!.

نهضـــت تتحـــرك فـــي الغرفـــة يـــدفعها جيشـــان شـــعورها، تعلـــم أنـــه لـــم يعـــد يجـــدي الرجـــوع عـــن طريـــق قـــد بدأتـــه، فـــلا التقهقـــر ســـيهدئ ومـــيض الأمـــل المشـــتعل ولا التقـــدم ســـيمنحها مـــا تريـــد، كـــلا القـــرارين فيهمـــا خســـارة، إذن وجـــب عليهـــا أن تختـــار وألا تقـــف حـــائرة فـــي نقطـــة المنتصـــف قبـــل ضـــياع كـــل شـــيء، كـــان عقلهـــا يعـــجّ بفوضـــى وأرق ذهنـــي مشـــتت، يصـــاحبهما خفقـــان فـــي القلـــب، وفـــي وســـط تلـــك التـــزاحم الخـــانق لمـــع هنـــاك خـــاطر فـــي القلـــب،يلوح فـــي ســـاحة الضـــباب، ويقتـــرب رويـــدا ثـــم يتلاشـــى، ومـــا أن يـــدنو مـــن الإدراك يهـــرب فزعا.

أخـــذت نفســـا عميقـــا وتنهـــدت بـــبطء كـــي تحتـــوي ذاك الخاطر،أســـندت ظهرهـــا علـــى الســـرير وشـــردت قلـــيلا، ثـــم تصـــلبت جالســـة تحـــدق أمامهـــا، لقـــد أخـــذت قـــرارًا وحتمـــا ستنفذه مهما كانت عواقبه وخيمة.

نهضـــت عـــن الســـرير واتجهـــت إلـــى الحمـــام توضـــأت، ووقفـــت تصـــلي تتضـــرع إلـــى الله فـــي خشـــوع أن يســـامحها ويغفـــر لهـــا ويخفـــف عنهـــا الـــبلاء، مســـحت دموعهـــا وذهبـــت لتـــرى طفليها، ماذا يفعلان وهل شعرا بما حدث مع زوجها؟!.

شـــعرت بالشـــفقة والحـــزن حينمـــا وجـــدتهما نـــائمين علـــى الأرض أمـــام التلفـــاز، أيقظـــت أمجـــد فهـــي لا تقـــدر علـــى حملـــه وحملـــت الآخـــر ودثرتهمـــا فـــي فراشـــهما، ثـــم انســـلت بهـــدوء إلـــى غرفـــة نومها،كـــان ممـــددا علـــى الســـير يغـــطّ فـــي نـــوم عميـــق، جثـــة متصـــلبة تقـــوم بعمليـــة تـــنفس مصـــاحبة بصـــوت شـــخير مقـــزز، ألقـــت عليـــه نظـــرة لـــيس لهـــا معنـــى، لا تعبـــر عـــن أي شـــعور، فقـــدت أي عاطفـــة تجـــاه هـــذا الكـــائن، حتـــى شـــعور الاحتقـــار والكـــره لـــم يعـــد تكنـــه لـــه، صـــار يشـــبه شـــيء لا طعـــم لـــه، أخـــذت غطـــاء كثيفًـــا مـــن خزانـــة الملابـــس واتجهـــت لتنـــام على أريكة في غرفة أخرى.

ظلـــت شـــاردة تفكـــر فـــي تنفيـــذ الخـــاطر الـــذي أتاهـــا منـــذ قليـــل حتى غلبها سلطان النوم فنامت.

مـــا أن شـــعرت بـــأذان الفجـــر نهضـــت تتثـــاءب بثقـــل، لتبـــدأ يومـــا آخر من أيام سجنها الزوجي.

كانـــت تـــدخر مبلغـــا مـــن المـــال، وفرتـــه مـــن مصـــروف بيتهـــا، أخـــذت منـــه مبلغـــا بســـيطا وبعـــد توصـــيل ابنيهـــا لمدرســـتهما اتجهـــت إلـــى الســـوق لتشـــتري كميـــة كبيـــرة مـــن الخضـــروات واللحـــوم لتخزنهـــا فـــي الثلاجـــة، مـــا أن أنهـــت تجميـــع الطلبـــات حملـــت الأكيـــاس الثقيلـــة بإعيـــاء واتجهـــت إلـــى بيتهـــا، وبـــدأت بتفريـــغ الحقائـــب وتخـــزين هـــذه الكميـــات مـــن الخضـــار واللحـــوم يكفي لمدة أسبوعين.

أخـــذت بضـــع ســـاعات لإعـــدادها، فأمامهـــا متســـع مـــن الوقـــت بعـــد أن حرمـــت مـــن صـــديقها الأمـــين الحاســـوب، بعـــدما أنهـــت

كل المطلوب، أخذت هاتفها وبحثت في ذاكرته عن الرقم الذي أرسل لها الرسالة الأولى، لتتأكد هل هو لأستاذها (صالح شكري)أم لا؟!.

حفظت الرقم باسم مستعار وشرعت بالاتصال، كانت ترتجف تخشى ألا يكون الرقم له، فتنعدم وسيلة الاتصال به، كما منعت من الاتصال بالإنترنت.

جاءها صوته الهادئ المميز فتذكرت ابتسامته ، هي تشربت هذا الصوت داخلها وصارت تقلده في بعض الأحيان، ألقت عليه التحية، فعرف صوتها أيضًا، وبادرها بضحكة صادقة فرحة وقال:

-أنت يمنى ؟!.

-أجل أستاذي .

-يا هلا سيدتي، كم أنا سعيد جدا لسماع صوتك، شنفت مسامعي بصوتك الرقيق.

توردت وجنتيها خجلا مبتسمة ولم ترد، أدرك أنه أخجلها فغير دفة الحديث قائلا:

-أخبريني سيدتي؟!.

-بمَ؟!.

-أسجل اسمك في الجولة الرابعة؟!.

صمتت برهة تكتم أنفاسها وأطلقت تنهيدة عميقة قائلة:

-أجل أستاذي، قطعا سأشارك في هذه الجولة.

تهلل وجهها فرحا وصاح قائلا:

-حتما سجلت اسمك منذ انتهاء اختبار الجولة الثالثة، دفعني حدسي لذلك وألزمتني الثقة أن أجعلك أول الأسماء، فسؤالي سؤال متأكد واثق وليس طلبًا لإجابة.

أومأت برأسها امتنانا لهذا الرجل وقالت:

-متى موعد الجولة هذه؟!.

-بعد غد في العاشرة صباحا أم تريدين تغيير الموعد للمساء؟.

-لا.هذا الموعد مناسب جدا، لأول مرة يحالفني الحظ.

وابتسمت ابتسامة حزينة، ساد الصمت لحظة فقطعه قائلا:

-أعلم ما تعانيه سيدتي من صراع داخلي، فالصراع أمر مشترك وإن اختلفت أسبابه، فيدي ممدودة لك بكل خير.

ذرفت دمعة متأثرة بما قاله:

-أشكرك أستاذي، أستأذنك الآن.

-إلى اللقاء يمنى.

أغلقت الهاتف وارتمت على الأريكة زحفت إليها كل المخاوف والهواجس، أغمضت عينيها لا تدري هل ما

فعلتــه صــوابا أم خطــوة ضــبابية نحــو مجهــول مــوحش، وقفــت ثابتة تهمس في نفسها:

-لقــد اتخــذت القــرار ولا مفــر، انتهــى الأمــر، ســأذهب إلــى المركــز دون أن يعلــم، فلــن أجعلــه يحطــم أحلامــي مــرة أخــرى، وليكن ما يكون.

(23)

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا استيقظت قلقة، عيناها حائرة، يداها ترتعشان قليلا، يقلقها ماذا لو عرف زوجها أنها ذهبت للمركز دون علمه؟!

تسلل إليها إحساس بالندم والحمق، فقد اندفعت بغباء نحو طموح وخيال لن تجني من ورائه شيئًا غير أنها ستكون ضحية هذا الأرعن، جعلت من نفسها قذيفة رخيصة ستصوّب من فوهة غضب هذا المتغطرس لتدمر حياتها،ربما يعاقبها بالضرب المبرح حتى يهدّ قوتها ويذلّ كرامتها أو يرصدها ويمنع عنها الخروج من البيت نهائيا أو حتى الاقتراب من الشرفة غير نظرات الاتهام والتشكيك التي سيرمقها بها.

تسمرت لحظات ثم شحذت همتها وطردت هذه الهواجس واتجهت إلى الحمام لتتوضأ بدأت هذا اليوم بالدعاء أن يسترها الله عن عين زوجها ولا يراها، أو تقع عين أحد من الجيران عليها ويخبر زوجها، أنهت فطوره وفطور طفليها دون أن تنظر إليه، لاحظت نظراته إليها وكأنه يجس حالتها بعد ما حدث أمس، فهي لم تكن زوجته القديمة، إنما لمح فيها تغييرًا جديدًا طرأ عليها، ترقبت خروجه من المنزل حتى تستعد لما هي عازمة عليه، وحينما تأكدت من انطلاق سيارته أسرعت إلى خزانة ملابسها وأخرجت منها ثوبًا أزرق أنيقًا لم تلبسه منذ

زمن، كانت تحتفظ به للمناسبات السعيدة كما يقال تقريبا في العيدين فقط،وسحبت حجابا سماويا زاهيا مزينًا ببعض الزهور البيضاء، ثم أخرجت حقيبة يد بيضاء وحذاء من نفس اللون الأبيض، وضعت على وجهها قليل من الكحل، بعد دقائق أنهت ارتداء الفستان والحجاب والحذاء ووضعت الحقيبة في كتفها، أمسكت طفليها متجهة إلى مدرستهما، لذا لم تعد ثمة شيء لتتأكد أنها مقدمة على طريق لا رجعة فيه.

بعد ما وصلت إلى المدرسة وأدخلت طفليها، حدقت إلى الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد، خفق قلبها بشدة فالوقت لا يزال مبكرا، أين ستقضي هاتين الساعتين، تذكرت صديقتها أحلام، في تلك الفترة السابقة لم تحدثها إلا مرات معدودة للاطمئنان عليها، فقد شغلتها هذه الدورة التدريبية بجولاتها الثلاث عن الذهاب إليها أو حتى زيارة جدتها المسنة.

تكتفي فقط بالسؤال عبر الهاتف، إذن ماذا ستجيب لو سألتها أحلام عن سر هذا الثوب الذي ترتديه والتغير الطارئ على ملامحها، لم تعتد أن تزورها في هذا الوقت المبكر ؟!، تراجعت عن هذا الاقتراح، لن تحتمل أي تأنيب أو توبيخ من صديقتها، فقد سبق السيف العذل، فضلت أن تسير إلى السوق، فالنظر في معروضات المحلات يسرق الوقت، وقفت على محل ملابس، فأعجبها ثوبا أنيقًا، سألت عن ثمنه، ثم استكملت طريقها في السوق، نظرت إلى الساعة لقد تجاوزت التاسعة، باقي أقل من ساعة، هذا

وقت كافٍ أن تسير بطول هذا الشارع وتستقل سيارة أجرة لتصل إلى المركز، كان واضحًا القلق عليها تقطم أظافرها في توتر، نزلت من السيارة تتلفت حولها كلصّ يخشى أن يكشف أمره، ومع ذلك تقدمت بخطى سريعة خاطفة لا تكاد قدميها تلمس الأرض، تهرول إلى المركز، شعرت بالتيه لأول مرة تأتي هذا المكان، لا ترى اللافتة التي تعلن عن مكان هذا المركز ولا رقم البناية، ارتجف قلبها تخشى أن تكون ضلت المكان الصحيح، أوقفت سيدة أنيقة وسألتها عن رقم البناية واسم المركز، فوجئت أن البناية أمامها تماما في الجهة الموازية لها، وبسبب قلقها لم تلاحظها ولم تلمح اللافتة، ابتسمت كطفلة بلهاء واتجهت إلى الجهة الأخرى، تنبهت لصوت هاتفها في الحقيبة يرن، فتحتها والتقطته تنظر لترى من المتصل؟!، زادت ابتسامتها وشعرت بالاطمئنان حينما قرأت الاسم المستعار الذي سجلته لأستاذها (صالح شكري)، فتحت الاتصال قائلة:

-السلام عليكم أستاذ صالح.

-وعليكم السلام يمنى أين أنت الآن؟.

-أنا أمام باب البناية، ورفعت رأسها تنظر إلى اللافتة.

-رائع، انتظريني دقائق سأنزل حالا.

ضحكت برقة وقالت:

-لا داعي أستاذي، لقد دخلت البناية.

-لا يمكن سيدتي لابد من استقبالكِ.

-حسنًا أستاذي.

أغلقت الهاتف وانتظرته داخل البناية، خشية أن يراها أحد، تفرك في يديها لا تعلم هل سببه الخوف من زوجها أم الفرح لرؤية أستاذها المبجل؟، في أقل من دقيقة كان يهلّ من المصعد بأناقته المعتادة وابتسامته الهادئة، لكن هذه المرة صوت وصورة في الواقع الملموس، حينما رآها واقفة أمام المصعد، اتسعت ابتسامته وأقبل إليها قائلا:

-أهلا وسهلا بسيدتي، سيدة هذا المكان.

احمرّ وجهها خجلا وارتجف قلبها مطأطئة رأسها، تخفي ابتسامتها وقالت بصوت خفيض رقيق:

-شكرًا أستاذ صالح.

-تفضلي سيدتي، قاعة التدريب في الدور الثاني، أما الدور الأول قاعة أخرى كبيرة سيأتي وقتها قريبا إن شاء الله.

سارت معه إلى المصعد صامتة وجلة يقيد حركاتها الخجل ثم إلى قاعة التدريب، وهو يشير إليها بلطف وابتسامة إلى المكان الذي تدخل فيه، دخلت القاعة ففوجئت بعدد من الجالسين لا يتجاوز العشرين، مختلط من بين شباب وفتيات في مقاعد منفصلة، أشار إليها أن تتقدم حتى أجلسها في أول الصف، أمامه مباشرة مما زاد من خجلها، لا تصدق أنها تراه الآن وجها لوجه، مأخوذة مشدوهة كالمسحورة بسعادة تحتويه وتنسيها أي شعور يعكر عليها هذه السعادة، ظلت محدقة إليه تراقبه عن كثب وهو يشرح

أول محاضرات الجولة الرابعة والأخيرة في هذا البرنامج التأهيلي، شعرت بالضيق حينما تذكرت أنها نسيت مدونتها التي رافقتها طيلة الجولات السابقة، تبا لهذا القلق الذي أنساها تلك الرفيقة، لكنها ستدون كل ملاحظاته في عقلها لن تعجز عن هذا طالما تشعر بالأمان وهي تتعلم تحت يديه الآن، داهمها الوقت فحدقت بساعة يدها، لقد أوشكت على الحادية عشرة، لا بد أن تستأذن لتسرع إلى المدرسة لإحضار طفليها، كان يراقبها أثناء شرحه، لم تغب عن نظره وكأنه يشرح لها وحدها، أدرك نظرتها الأخيرة لساعة يدها، فابتسم وبطريقة فنية متقنة أنهى المحاضرة، نظرت له نظرة إعجاب وامتنان، هذا الرجل دوما يفهمها دون أن تنطق، عرض عليها أن يوصلها لمدرسة طفليها لكنها رفضت بشدة، واستأذنت منه، وهرولت مسرعة إلى الشارع تتلفت حولها حتى استقلت سيارة أخرى، ووصلت بسلام للمدرسة ، تنهدت تنهيدة اطمئنان، وانتظرت قليلا حتى خرج الطفلان من باب المدرسة، أمسكت بهما واتجهت إلى بيتها، لتعد الغداء الجاهز في الثلاجة قبل مجيء زوجها.

(24)

ظلت على مدار أسبوعين تذهب إلى المركز يوميًّا عدا الجمعة والسبت، فهما إجازة لطفليها من المدرسة كذلك المركز التدريبي، أخفت أي وساوس شك على ملامحها من الممكن أن تتسلل لعقل زوجها وأزالت أي شيء خلفها يتعلق بهذه الجولات يقع بالمصادفة في يده، عادت إلى حالة الصمت والسكون مرة أخرى، لكن هذه المرة سكون آخر متعمد حذر، ربما سكون ما قبل العاصفة، أصبحت بمقدورها الآن أن تكون أشد جراءة لتتسلل إلى هذا المركز، أضحت أكثر ثقةً وإقدامًا على التعلم وخاصة أن هذه الجولة أكسبتها الكثير من المعلومات والسلوكيات، علاوة على التدريب على طرق الحوار وإدراك لغة الجسد وبرمجة الأعصاب إضافة إلى تحويل الأفكار السلبية إلى قدرات وطاقات نابعة من الذات تستطيع مواجهة الصعاب والأزمات.

أصبحت أكثر سرعة وبديهة في إدراك عقليات الآخرين وتحديد مستويات توصيل الهدف من خلال تلك البرامج التأهيلية، كان من المحتمل أن تبدي صعوبة وتأخر تحصيلي في اقتناص هذه الجولة فقد كانت تخشى المواجهة والتعامل، إلا أن الآن الأمر تغير تغييرًا ملحوظا، أسعد معلمها كثيرًا وبدا وكأنه يخصّها وحدها بالشرح والتدريب، غمرها شعور بالرضا والثقة التي بدت

جليـــة فـــي كـــل حركاتهـــا كـــذلك فـــي إجابتهـــا عـــن الأســـئلة المطروحة عليها.

كـــان ينتابهـــا شـــعور بالضـــيق إذا طلـــب معلمهـــا أن تبحـــث عـــن موضـــوع محاضـــرة أو تقـــديم بحـــث فـــي موضـــوع يـــدور حـــول محاضـــرة أخـــرى علـــى شـــبكة الإنترنـــت، فاضـــطرت أن تتســـلل خفيـــة فـــي غيـــاب زوجهـــا، تفـــتح حاســـوبها وتبـــدأ بجمـــع المعلومـــات المطلوبـــة تشـــبه مـــا يكـــون بلـــص معلومـــات يتلفـــت حوله خوفا أن يقبض عليه متلبسًا بجريمته.

مـــا أن تنهـــي مـــا تحتاجـــه مـــن الإنترنـــت تتنهـــد وتتـــنفس الصـــعداء، وتحمـــد ربهـــا، لقـــد ســـترها قبـــل مجـــيء زوجهـــا، مـــا أقسى ذاك الإحساس المرير!.

ظلـــت علـــى هـــذا المنـــوال مـــا يقـــارب الشـــهر، إلـــى أن أعلـــن أســـتاذها انتهـــاء الجولـــة الرابعـــة، واختبـــار هـــذا الجولـــة فـــي غضـــون أســـبوع، اجتاحتهـــا رهبـــة ورجفـــة عنـــدما علمـــت منـــه أن الاختبـــار ســـيكون إلقـــاء محاضـــرة فـــي موضـــوع يحـــدده المشـــترك ويلقيـــه أمـــام لجنـــة تحكـــيم، فانتابهـــا القلـــق للحظـــات وظلـــت شـــاردة لمـــا ينـــاهز الربـــع ســـاعة حتـــى أفاقـــت علـــى صوت معلمها:

-يمنى، سيدتي!.

انتفضت محدقة إليها:

-نعم.

-ما بك أراكِ شاردة ؟!.

-أفكر في الاختبار.

-لا تقلقي أنت لها أستاذتي.

ابتسمت في قلق، تخفي ارتعاش نظرتها وقالت:

-الله المستعان.

صمت معلمها لحظة وقال:

-أنـــا أثـــق فـــي قـــدرات يمنـــى، صـــدقيني ســـتتوجين أفضـــل محاضر في هذا المجال،وسنتنافس أنا وأنت.

أغمض عينيه قليلا واستطرد:

-وساعتئذ لن أرفق بك، أحذرك من الآن.

وضحك.ابتسمت خجلة:

-ســـتظل أســـتاذي مهمـــا تمكنـــت مـــن هـــذا المجـــال، فالفضـــل لـــك بعد الله سبحانه وتعالى.

صمت لحظة ورفع بصره قائلا بجدية:

-ستجتازين هذا الاختبار بتفوق ولك مفاجأة.

حدقت إليه مشدوهة وقالت:

-مفاجأة!.

أومأ برأسه مؤكدا على كلمتها وقال:

-اهتمي الآن بتحضير آليات الاختبار ولا تستعجلي القادم، كله خير إن شاء الله.

أومأت برأسها واستأذنت منه كي تحضر طفليها من المدرسة، ظلت طوال الطريق تفكر هل ستتمكن من إثبات جدارتها في تلك الفرصة؟، على مدار هذا الأسبوع كانت أول ما فكرت فيه أن تفتح حاسوبها خلسة كما تعودت منذ بضع أسابيع حتى استطاعت أن تجمع ما تريد لتغذية بحثها المطلوب، ثم هيأت من نفسها وشحذت قوتها لخوض اللحظة المهمة في حياتها، لحظة تشيّد عليها آمال وتطلعات عديدة.

وبالفعل حان موعد الاختبار، فقد كان هذا اليوم مختلفا عما سابقه، كانت منغمسة في تجهيز حاجيتها وإعداد ما هو مطلوب منها من ملتزمات له ولطفليها، كلما تحاول أن تتناسى موعد الاختبار كي تنأى عن شعور التوتر والرهبة، حتى لا يكشف أمرها أمام زوجها، فما زالت نظراته تخيفها بعد آخر موقف حدث بينهما، نظراته توحي بالشك والترقب،لكن رهبة الموعد تصر على أن تلوح أمامها، خفت حدة التوتر قليلا حينما تأكدت أنه ذهب إلى عمله، أخرجت ثوبا أخضر بلون حقول الربيع، وحجابا أشد خضرة ليتناسب مع الثوب والحقيبة والحذاء، أخيرا أنهت كل شيء وأمسكت طفليها متجهة إلى المدرسة ثم إلى الموعد المنتظر، تمتمت في نفسها ارتياحا قد قرب

انتهـــاء امتحانـــات أولادهـــا مـــع انتهـــاء هـــذه الجولـــة، فرصـــة متاحـــة للتفـــرغ لتوطيـــد ثقافتهـــا فـــي هـــذا المجـــال وتجميـــع أكبـــر قدر للمعلومات المتنوعة.

تشـــعر بالثقـــة والســـعادة لأنهـــا حظيـــت بمكانـــة وقـــدر عنـــد أســـتاذها المبجـــل، فحينمـــا طلبـــت منـــه أن يقـــدم موعـــد الاختبـــار فـــي التاســـعة صـــباحا بـــدل العاشـــرة ليكـــون أمامهـــا متســـع مـــن الوقـــت قبـــل موعـــد خـــروج طفليهـــا مـــن المدرســـة، لـــم يعتـــرض، لكنـــه خشـــي مـــن اعتـــراض اللجنـــة علـــى هـــذا الميعـــاد المبكـــر إلـــى حد ما، وعدها أنه سيؤثر عليهم ويقنعهم فلا تقلق.

حـــدقت إلـــى ســـاعة يـــدها، تجـــاوزت الثامنـــة والنصـــف، هرولـــت مســـرعة لتســـتقل ســـيارة أجـــرة، لـــم يتبـــق مـــن الوقـــت إلا أقـــل مـــن نصـــف ســـاعة، بالفعـــل بعـــد مضـــي ثلـــث ســـاعة كانـــت أمـــام بـــاب المركز،فوجئـــت بأســـتاذها ينتظرها،يبـــدو عليـــه القلـــق، حينمـــا رآهـــا تهلـــل وجهـــه مبتســـما وفـــتح لهـــا بـــاب المصـــعد قائلا:

-ســـيدتي لقـــد تـــأخرتِ دقيقتـــين وهـــذا مؤشـــر لـــيس فـــي صالحك!.

فركت يديها توترا واحمر وجهها وقالت:

-أعتذر، لقد سرقني الوقت.

قاطعها بلطف:

-عامة اللجنة لم تبدأ بعد، قطعا لن يبدؤوا إلا بي.

وضحك.

ضحكته خففت كثيرا من توترها، وخاصة ليس من مصلحتها زيادة جرعة التوتر في هذا اليوم المصيري بالنسبة لها، دخلت القاعة مع أستاذها يحاول أن يمازحها ليخفف من حدة التوتر التي بدت عليها، طلب لها قدحا من القهوة لتهدأ قليلا وكي تلتقط أنفاسها، بمجرد انتهاء قدح القهوة كانت اللجنة قد اجتمعت في صف واحد على المنصة، وشاشة العرض خلفهم.

كانت هي أول الأسماء من ضمن عشرة أسماء التزمت مثلها بمواعيد الجولة وتقديم الأبحاث المطلوبة،فحق لهم دخول هذا الاختبار.

أشار لها أستاذها أن تبدأ، كان يجلس أمامها تماما يبدو عليه الهدوء والتركيز، فمن مثله في هذا اليوم ينتظر نتيجة البذرة التي زرعها، فهذا أول باكورته في جني الثمرة المرجوة، اليوم سيرفع القبعة لحدسه ويحيه على انتقائه المتقن، ما أجمله من إحساس يشعر به الآن.

صعدت إلى المنصة أمام شاشة العرض تقبض في يديها بعض وريقات وفي اليد الأخرى أدخلت أداة صغيرة في حاسوب أستاذها المتنقل تستخدمها لنقل المعلومات التي سجلت عليها بحثها.

حالمـــا وقفـــت ثابتـــة لتبـــدأ أرســـلت نظـــرة قلقـــة لأســـتاذها،فبادلها بابتســـامة هادئـــة وإيمـــاءة خفيفـــة، أدركـــت مضـــمونها فبـــدت ابتسامة صغيرة على محياها.

شـــرعت يمنـــى تتحـــرك علـــى المنصـــة بخفـــة وإن بـــدا صـــوتها مهـــزوزًا مـــن أول وهلـــة لكنـــه تلاشـــى رويـــدا، رويـــدا حتـــى ســـطعت تتحـــدث بثقـــة واتـــزان ملحـــوظ تحـــرك محـــرك الحاســـوب فتظهـــر الصـــورة علـــى شاشـــة العـــرض ممـــا جعـــل أســـتاذها يزيـــد مـــن انتباهـــه و يحملـــق بدهشـــة جامـــدة فتبـــدلت نظراتـــه للإعجـــاب والانبهـــار بهـــذا المســـتوى المتقـــدم التـــي ارتقـــت لـــه، لـــم يقـــل نظـــرات الآخـــرين عـــن نظراتـــه،ما إن انتهـــت مـــن عـــرض بحثهـــا حتـــى امـــتلأت القاعـــة بالتصـــفيق الحـــاد، وقفـــت صـــامتة لا تســـتوعب أن هـــذا التصـــفيق لهـــا وحـــدها، كـــل هـــذا لـــم يســـعدها بقـــدر نظـــرة أســـتاذها لهـــا التـــي لمحـــت فـــي عينيـــه دموعًـــا حبيســـة تكـــاد تســـقط، هنـــا خالطتهـــا أحاســـيس كثيـــرة، أصـــبحت بمقـــدورها تحديـــد مـــا تريد،لقـــد تركـــت لـــدى الحضـــور انطباعًا جديدا سيكون له الأثر في الأسابيع القادمة.

وفـــي أثنـــاء تنقـــل نظرتهـــا بـــين الجالســـين، لمحـــت نظـــرة هنـــاك عنـــد بـــاب القاعـــة، فـــارتجف قلبهـــا وارتعشـــت يـــداها،نعم إنهـــا تلـــك النظـــرة العميقـــة، تصـــلبت نظرتهـــا فتبلـــدت فـــي مكانهـــا، تبـــدلت ملامحهـــا فجـــأة، لقـــد عرفتـــه، نعـــم هـــو ذاك الشـــخص المجهـــول الـــذي اصـــطدم بهـــا منـــذ أشـــهر قليلـــة، لقـــد عـــاد مـــرة أخرى.

(25)

يـا قلـبُ لـمَ تنـتفض ؟!مـا بـك ارتجفـت حينمـا رأيتـه، أعرفتـه يـا مسـكين؟!، مـاذا فعلـت بـك نظرتـه، ومـا بـال دقاتـك رقـت فـيهم دقـة، ونبضـاتك ارتجفـت مـنهم نبضـة!، اهـدأ بـالله عليـك، فمـا عـدت أدري مـاذا حـدث لـك؟!، أيهـا المجهـول عـدت ثانيـة لـمَ ؟!،ليتنـي أدرك لغـزك!، مـا بـين لحظـة الشـرود والانتبـاه كانـت يمنـى، حـائرة فـي عـودة هـذا المجهـول، وفـي نفـس الحـين كانـت عينـا أسـتاذها ترقبهـا عـن كثـب، كـان يحيطهـا بنظـرة إعجـاب، لمـح تبـدل ملامحهـا وتسـمر نظرتهـا ناحيـة بـاب القاعـة، انتظـر لحظـة وحينمـا طالـت نظرتهـا،نظر إلـى مكـان تسـلط عينيهـا فلـم يجـد أحـدًا، نهـض إليهـا صـاعدا المنصـة يصـفق فـأدارت عينيهـا إليـه منتبهـة، أفاقـت مـن حالـة اصـطدام مـرة أخـرى، لكـن هـذه المـرة اصـطدام بـالأعين، عـادت الابتسـامة والفرحـة المتراقصـة تـزين وجههـا، فوقفـت أمـام أسـتاذها فـي ثقـة واتـزان شـامخة يعانقهـا شـعور بـالفخر، بادرها قائلا:

-ألم أقل لك يوما أنك ستكونين أفضل محاضر؟!.

طأطأت رأسها خجلا وقالت:

-نجاحي هذا أهديه لأستاذي، فهو سبب ما أنا فيه الآن!.

ضحك منتشيا وقال:

-اليوم رأيت نسخة مصغرة من صالح شكري تتحرك على المسرح في براعة ومهارة، حقيقة نسخة أجمل بكثير!.

ابتسمت خجلا ولم ترد، حقا هي تقلده كثيرا في كل حركاته،حتى الابتسامة مقتبسة منه، قطع خجلها قائلا بحماس:

-سيدتي ألا تسأليني عن المفاجأة.

حملقت إليه مشدوهة تنتظر استكمال حديثه، استطرد يواري كلامه ضاحكًا:

-ليس الآن، فالأمر يحتاج توضيحا واستفسارات كثيرة منك، سأنتظرك غدا في العاشرة، اتفقنا؟.

أومأت برأسها تؤكد على الموعد، واستأذنته مهرولة متجهة لمدرسة طفليها، حينما خرجت من باب البناية خطر ببالها ذاك الشخص المجهول وإن توهمت أنها غفلت عن انشغالها بأمره في البضع دقائق التي انتشلها أستاذها من ذاك الشرود، تلفتت حولها وبدأت تسرع وتسرع خشية أن تصطدم به مرة أخرى رغم أن غموضه ونظراته تدفعها إلى أن تلتقي به لتحل لغزه، فالوضع الآن تغير وأصبحت أكثر قدرة على مواجهته وإيقافه عند حده إن لزم الأمر، على النقيض شعرت بإحساس ناشئ مولود منذ لحظات تجاه هذا المجهول، يتفتق من ركام أطلال ممزقة في ثنايا القلب، يتعثر ويختفي ثم يعاود مرة أخرى،لكنه غامض أيضًا لا تستوعب بدايته ولا تجد له تفسيرًا، طردت كل هذه

الأحاسيس الفوضوية من تفكيرها وتقدمت تنتظر طفليها، ما أن وصلت إلى منزلها عاودها التفكير مرة أخرى في ذلك الشخص، صورته هذه المرة تطفو بشدة على سطح التفكير، وتصر أن ترافقها طوال يومها،لقد أنهكها كثرة الاحتمالات لهذا المجهول، وكلما تفشل في احتمال أنه.وأنه، تعود لنقطة الصفر وتتساءل:

-من هذا الشخص، وماذا يريد؟!.

أدركت أنها بلغت لدائرة صراع أخرى من المحتمل أن تقذفها خارج بؤرة تفكير سليم منجز، إذن فلتحسم الأمر بالمواجهة ولن تضع احتمالاتها تغوص في مستنقع الشك والقلق، في صبيحة اليوم التالي، اتجهت إلى المركز، كما اتفقت مع أستاذها، احتلال صورة ذاك الشخص على تفكيرها أنستها توقعات المفاجأة حتى تضع نصب عينيها الرد المناسب والقرار المحتمل.

أغمضت عينيها برهة أمام باب البناية تلتقط أنفاسها، انتشت عبق إحساس الأمس، فارتجف قلبها، تلفتت حولها ربما هو الآن يراقبها، وهرولت مسرعة إلى المصعد، اتجهت إلى قاعة التدريب فلم تجد فيها أحدًا،استغربت لحظات، ثم أخرجت هاتفها واتصلت بأستاذها، فدلها على مكتبه في نهاية الممر، أسرعت الخطى إلى أن وصلت لنهاية الممر فوجدت اسمه مكتوب على لافتة صغيرة، ابتسمت وطرقت الباب فأذن لها، فتحته ودخلت تغمرها ابتسامة متحمسة:

-السلام عليك أستاذي.

نهض عن المكتب مهللا:

-وعليك السلام سيدتي .

أشار لها أن تجلس، وقبل أن يجلس هو أيضًا اتصل بالساعي أن يحضر قدحين من القهوة، استطرد قائلا:

-لعلكِ بخير؟.

أومأت برأسها:

-أجل، الحمد لله.

-إذن دعيني أشرع في الموضوع مباشرة.

حدقت إليه يقظة و أومأت برأسها، استكمل قائلا:

-أخبرتك أمس أن لك مفاجأة، وقبولها أو رفضها يتوقف على قرارك أنت.

وصمت، ارتخت على الكرسي قليلا، بدت أكثر انتباها والتزمت الصمت.

-يمنى ماذا لو عينت في هذا المركز محاضرا للتدريب عبر الإنترنت أو إلقاء محاضرات هنا ؟.

تصلبت نظرتها ولم تنطق، فأدرك هو أنها تفكر قبل اتخاذ القرار، فقاطع تفكيرها:

-لك الوقت الكامل في التفكير لكن تأكدي أنها فرصة ذهبية لن تعوض، خاصة ما حظيته من مكانة ونظرات الانبهار أمس.

أغمضت عينيها لحظات مركزة سبحت نفسا عميقا وأخرجته ببطء ثم فتحت عينيها في ثقة وقالت:

-موافقة.

اندهش من قرارها المفاجئ كان يتوقف أن تطلب وقتا للتفكير، لكنه لم يتوقع أن ترفض، خاطر الرفض لم يخطر على باله بتاتا، دوما حدسه يؤكد له ذلك، وصار يثق فيه كثيرا، رغم سعادته بموافقتها، خشي أن يكون قرارًا تحت تأثير شيء ما، أو إسكاتا لصراع آخر، فبادرها قائلا:

-سيدتي لك الوقت لتفكري جيدا، وثانيا لم تسألي عن الأجر.

قاطعته برقة:

-أستاذ صالح، موافقة.موافقة، متى سنبدأ؟!.

-من غد لو أردت، المجموعة جاهزة كنت سأبدأ معهم غدا، لكن أنا وأنت واحد.

وابتسم، بادلته ابتسامة هادئة، بل تلميذتك، ستظل دوما أستاذي الذي منحني ما لم أجده طوال حياتي، لمعت عيناها بالدمع، فقفزت عن الكرسي تداريها وقالت:

-أستأذنك، لنا لقاء غدا إن شاء الله.

-إلى اللقاء سيدتي، سأنتظرك غدا مع المجموعة.

انسحبت من المكان بهدوء كالمخدرة تحت تأثير قرارها،وكان أول ما فكرت به ألا تفكر في شيء إلا ترتيب خطة هذا القرار، تعلم جيدا أنه قرار شبه مستحيل تحقيقه، رغم ذلك لم تتردد أو تندم على اتخاذه بهذه السرعة، الآن بمقدورها إدراك النتائج والعواقب، وحسابها أيضًا بدقة وتمعن،كأنما تضع نصب عينيها كفتي ميزان حساس تترقب أي كفة منهما، ستميل إلى الاحتمالات أقل خسارة وإلى أي مدى نسبة الصواب.

بعد انتهاء يومها من متطلبات ورعاية لأولادها، أغلقت على نفسها الغرفة وتمددت على السرير شاردة ترسم في عقلها خطة التنفيذ، لابد من إحكامها جيدا، إذا اشتم هو رائحة هذه الخطة، سيدمر كل شيء شيدته منذ أشهر، حتما لابد أن تنجح هذه الخطة، لن تتراجع خطوة واحدة بعد الآن، ولن تسمح للتردد والقلق أن يصاحبها في خوض هذه المعركة.

الشيء الوحيد الذي يشغلها وتبحث له عن حل، هو اقتراب إجازة طفليها من المدرسة، والإجازة طويلة، فكيف ستكون حجتها للخروج من البيت؟!

في أثناء انشغالها لإيجاد حل مناسب، لاحت أمامها صورة المجهول، فتسمرت تغوص في شرود آخر.

(26)

علـى مسـافة قريبـة مـن المركـز كانـت يمنـى تقتـرب مـن البنايـة تحمـل فـي يـدها بعـض الأوراق وفـي كتفهـا حقيبتهـا تتقـدم بخطـى حثيثـة، مـا يشـغل عقلهـا الآن، كيفيـة إدارة المحاضـرة الأولـى، المحاضـرة بدايـة تنميـة فكريـة وسـلوكية لهـم وبدايـة لهـا أيضًـا لطريـق جديـد قـد رسـمته فـي عقلهـا وهـاهي تخطـو أولـى خطواتـه، وبمـا أن برنـامج التأهيـل معـدّ لكـل محاضـر ولـه أن يختـار الطريقـة التـي تناسـبه فـي توصـيل هـذا البرنـامج للمشـترك، بالتـالي لـيس لـديها أدنـى مشـكلة فـي تحضـيره، لأنهـا أدركتـه جيـدا وتشـربته مـن معلمهـا صـالح شـكري، مـا يشـغلها الآن،الطلعـة الأولـى لمواجهـة طلابهـا التـي سـتحدد نوعيـة إدارتهـا، فالوهلـة الأولـى لهـا انفـراد وتميـز فـي ذكـرى أي محاضـر، لابـد أن تقتنصـها بمهـارة وتريث.

مـا أن دلفـت إلـى القاعـة، لمحـت السـاعي يخبرهـا بـأن الأسـتاذ صـالح يريـدها فـي مكتبـه، اتجهـت إلـى هنـاك، وعيناهـا تفضـحانها، تلمعـان بالرهبـة والقلـق، طرقـت البـاب، فـأذن لها:ألقـت عليـه التحيـة وجلسـت، رد التحيـة مبتسـماً وقال:أهلا وسهلا بالمحاضر الجديد.

ابتسمت قائلة:

-ليس بعد أستاذ صالح.

بـــل الآن ســـيدتي وأخـــرج مـــن درج المكتـــب ورقـــة واســـتكمل قائلا:

-هذا عقد العمل، وقدمه لها.

أخذتـــه وقـــرأت شـــروطه وتهلـــل وجههـــا فرحـــا حينمـــا قـــرأت الأجر، فرفعت نظرها إليه:

-ثلاثة آلاف!.

أومأ برأسه مؤكدًا:

-أجـــل، هـــذا فـــي البدايـــة، غيـــر المحاضـــرات الخارجيـــة والندوات لها أجر خاص ومغرٍ أيضًا.

أخـــذت القلـــم مـــن حقيبتهـــا ووقعـــت علـــى الورقـــة، وأعطتهـــا لـــه، ابتسم قائلا:

-هيا سيدتي استلمي عملك، المحاضرة ستبدأ بعد دقائق.

استأذنت منه وقبل أن تخرج ناداها:

-يمنى

التفتت إليه:

-نعم.

تقـــدم إليهـــا حـــاملا فـــي يديـــه حقيبـــة مســـتطيلة ومـــد يديـــه بهـــا، بدا عليها الاستغراب وقالت:

-ما هذا؟!.

تفضلي افتحيها، فتحت الحقيبة بنظرات متفحصة وزادت دهشتها:

-إنه حاسوب متنقل.

أومأ برأسه مؤكدا:

-سيفيدك في عملك كثيرا.

نظرت له نظرة امتنان وشكرته، أخذت حاسوبها الجديد ذاهبة إلى القاعة، وجدت عدد قليل لا يتجاوز العشرة فحدقت إلى الساعة، لا يزال أمامها بضع دقائق قبل اكتمال العدد المحدد،ألقت عليهم التحية ونهضت إلى المنصة وضعت حاسوبها وبدأت تعدل من إعداداته، ابتسمت حينما وجدت أستاذها وضع عليه نموذج من الجولة الأولى، ما عليها الآن إلا أن تشرع في تحديد البداية، ظلت تحدق إلى حاسوبها، فغفلت قليلا عن الحضور حتى انتبهت فجأة للعدد الكبير أمامها، نهضت عن الكرسي، وألقت عليهم التحية، لمحت أستاذها يجلس في آخر الصف يرسل لها ابتسامة ثقة وإيماءة خفيفة أعطاها إشارة البدء كالمعتاد، فبادلته بنظرة أكثر ثقة وأشد جدية، سحبت نظرها لتلقي نظرة أخرى على الحضور، وهي تمرر نظرها في وجوههم لمحت بطرف عينيها نظرة لم تكن تتوقعها، إنه الشخص المجهول!!، فارتجف قلبها يدق بسرعة رهيبة، حدقت إليه لمدة ثانية لا تصدق أنه

من ضمن الحضور، إذن لن تبالي به ولن تعطي له ثمة نظرة اهتمام أو تقدير، أفاقت سريعا من حالة ذهول اجتاحت كيانها، تمالكت نفسها وشحذت قوتها و تقدمت نحو شاشة العرض تحرك المؤشر على صورة تبدي تعارف بين الأشخاص، التفتت إليهم تبتسم بثقة وقالت:

-أفضل أن تكون أول محاضرة لدينا للتعارف، سيمنح لكل مشارك دقيقة يقدم فيها شخصه وهدفه، ونظرت إلى أستاذها فزادت ابتسامتها.

أشارت إلى أول الصف من جهة اليمين ليبدأ المشارك الأول، ظلت تتابعهم بنظرها وحركات وجهها وإشارات يديها، متغافلة تماما ذاك الشخص الذي يجلس في نهاية الصف، ما أن وصل دوره لم تسيطر على ملامحها، حدقت إليه مشدوهة تنتظر ماذا سيقول عن نفسه؟، نهض عن الكرسي واثقا، في عينيه رسائل غزل، قال:اسمي عصام رأفت، سني خمسة وثلاثون عاما،أعمل مهندسا في بلد عربي، هدفي من هذه الدورة التدريبية أن أبوح بما في داخلي، حدق إليها بعمق وجلس.

اكتست نظرتها إحساس جديد، ظلت محدقة لثوانٍ لعلها تفض رسائل عينيه، وللمرة الثانية تفيق على صوت أستاذها وهو يعرف بشخصه، علت على وجهها ابتسامة تقدير له :أستاذي أنت نار على علم لا تحتاج لتعريف.

كان أستاذها آخر من عرف نفسه، فشبكت يديها بنظرة ودية وقالت:

-لقد انتهت محاضرة اليوم، ألقاكم في المحاضرة القادمة لنشرع في البدء.إلى لقاء آخر بإذن الله.

تشاغلت عن الحضور المنصرف بغلق حاسوبها حتى لا تلتقي النظرات مرة أخرى، تعلم أنه طوال المحاضرة لم يرمش لحظة واحدة ليغمض عينيه عنها، رغم تظاهرها بعدم الاهتمام لوجوده ولم تبد قلقها من ذلك لكنها من حين إلى آخر تختلس نظرة بطرف عينيها،لا تدري لمَ تفعل هذا؟!، قبل أن تنصرف هي أيضًا أوقفها أستاذها قائلا:

-لو سمحت يمنى ممكن أمنح نفسي دقيقة من وقتك للتحدث في أمر ما؟!.

ابتسمت في دهشة وقالت:

-قطعا أستاذ صالح، تفضل.

اندفع قائلا:

-أنت مشرحة بالاسم لندوة مخصصة عن بحثك الأخير، نال إعجاب أستاذ من لجنة التحكيم وأخبرني أنه خصص له ندوة في القاعة الكبيرة، في الدور الأول.

وسكت يترقب ردها.

طأطأت رأسها ومدت شفتها السفلى، شردت لحظات، ثم قالت:

-ومتى الموعد؟!.

-في الثامنة مساء بعد غد.

بدا على وجهها الانزعاج، وقالت:

-الموعد مساء لا يناسبني، يا للأسف.

بدا على وجهه القلق:

-حاولي سيدتي، حاولي،هذه فرصة لا تعوض، لم تأت لي إلا بعد سنة من انتهاء تدريباتي.

أومأت برأسها:

-أجل سأحاول، سأخبرك عن الرد النهائي الليلة، أستأذنك.

-إلى اللقاء سيدتي.

ألقت نظرة أخيرة على مكان الحضور فوجدت الجمع انصرف بما فيهم الشخص المجهول، تنهدت تنهيدة عميقة، لملمت أوراقها وحاسوبها وانصرفت، أثناء خروجها من البناية رن هاتفها، فتحت حقيبتها وأخرجته بعد عناء بسبب ما تحمله في يدها، وجدت المتصل جدتها شعرت بالقلق، ففتحت الاتصال سريعا:

-السلام عليك جدتي.

كان صوت جدتها يبدو عليه المرض فقالت:

-عليكم السلام يمنى.

-ما بك حبيبتي أنت مريضة؟!.

صمتت جدتها ولم ترد، صاحت يمنى فزعة:

-سآتي إليك حالا.

وأغلقت الاتصال تهرول إلى مدرسة طفليها تكاد الدموع تراود أجفانها لكنها تماسكت، ما أن خرجا من المدرسة أوقفت سيارة أجرة واستقلتها، قلبها يرتجف من القلق على أمها التي ربتها، تذكرت زوجها وتصيده لتصنع المشاكل بينهما لو رجع من العمل ولم يجدها، اتصلت به لتخبره فوجدت هاتفه مغلقًا، انتابها شعور بالاستياء والضيق.لكن قلقها على جدتها طغى على توقع أي ردة فعل منه، هيأت نفسها أن تواجه ردة فعله مهما كانت، أومأت برأسها تهمس في نفسها:

-أجل هو أحمق أناني!.

أخذت هاتفها لتتصل بجدتها، ما زال القلق ينهش قلبها عاجزة أن تتحمله تشعر بالذنب وتأنيب الضمير، لقد انشغلت عنها طيلة الأشهر السابقة، لن تسامح نفسها، لو حدث مكروه لها،فجاءها صوت جدتها منخفضًا:

-أنا بخير يمنى لا تقلقي.

-جدتي، دقائق قليلة وستجديني عندك، أرجوك تماسكي.

أغلقت الهاتف تضرب كفا بكف، تترجى السائق أن يسرع.

ترجلت من السيارة تسرع ويهرول وراءها طفليها، صعدت السلالم للدور الثاني وفتحت الباب، أسرعت لغرفة جدتها،

وارتمـــــــــــت علـــــــــــى ســـــــــــريرها تبكـــــــــــي:

-جدتي ما بك جدتي؟.

ربتـــــت جـــــدتها علـــــى كتفهـــــا دون أن تنطـــــق ، نهضـــــت عـــــن السرير واندفعت قائلة:

-سأحضر لك الطبيب حالا .

فإذا صوت آخر في الغرفة:

-اهدئي يا ابنتي أخي ذهب لإحضار الطبيب.

فالتفتـــــت مشـــــدوهة للصـــــوت وتبـــــدت ملامحهـــــا إلـــــى الحـــــرج وقالت:

-آسفة لم أنتبه لكِ، اعذريني.

فأومأت السيدة وقالت:

-لا عليك ابنتي، نحن جيران جدتك غالية عندنا جميعا.

تحركـــت يمنـــى فـــي الغرفـــة محاولـــة الســـيطرة علـــى أعصـــابها لا تســـتطيع إخفاءهـــا، وقبـــل أن تخبـــر الســـيدة أن الطبيـــب تـــأخر، ســـمعت صـــوت جـــرس المنـــزل، فأســـرعت تهـــرول لتفـــتح البـــاب، فأفســـحت الطريـــق ليـــدخل الطبيـــب، لكنهـــا فـــي نفـــس اللحظـــة تســـمرت فـــي مكانها،وتصـــلبت نظرتهـــا، عقـــدت لســـانها المفاجأة تهمس في نفسها:

-مـــن هـــذا الـــذي يرافـــق الطبيـــب؟!، أجـــل هـــو الشـــخص المجهول، هذا ليس بشرا، قطعا جنيّ!!.

شـــل تفكيرهـــا ولـــم تنطـــق، حينمـــا رأى ملامحهـــا أدرك أنهـــا لا تســـتوعب وجـــوده الآن، فأفـــاق صـــوته ذهولهـــا وهـــو يشـــير للطبيب أن يتقدم ليرى المريضة.

أســـرعت تهـــرول وراء الطبيـــب كالمضـــروبة علـــى رأســـها، فاقدة التركيز تتصرف بطريقة آلية.

(27)

بعدما خرج الطبيب من الغرفة وهي ترافقه، تنبهت لوجود ذاك الشخص مستندا على الحائط يترقب خروج الطبيب، تصارعها الحيرة والدهشة من وجوده هنا في بيت جدتها ، سرعان ما تذكرت كلمات أخته بأنها جارة جدتها وربما اتصلت به كي يحضر طبيبًا، أجلت أمره حتى ينصرف الطبيب، وفي نفس اللحظة تجنبت النظر لوجهه تماما وكأن لا وجود له، حينما لمح الطبيب خارجا من الغرفة اعتدل في وقفته واقترب يسأله عن حالة العجوز، فرمقها بنظرة حادة غاضبة، لتحدثها مع الطبيب دون تقدير لوجوده معهما، تنحنح ليلفت انتباه الطبيب له وبادر قائلا:

-أيستدعي الأمر نقلها للمشفى؟!.

أدار له الطبيب نظره:

-لا.هي تمر بحالة غيبوبة كل حين بسبب مرض السكر، والأمر لا يتطلب نقلها إلى المشفى بقدر الاهتمام بطعامها وملازمتها بسبب كهولتها.

اندفعت يمنى كي تتحدث فأسكتتها نظرته الغامضة الحادة مما أجبرها أن تشيح بوجهها عنه، أستأذنهما الطبيب، وقبل أن يرافقه إلى الخارج نادته:

-أستاذ عصام لو سمحت أعطني ورقة الدواء.

ألجمتها للمرة الثانية نظرته، وتركها في شبه ذهول ليلحق الطبيب، كان بإمكانها أن تصر على قرارها ولا تأبى به، غريب أمرها كلما تنظر لعينيه يرتجف قلبها وينعقد لسانها، لا تدري ما سبب هذا الإحساس ولا سر توغله داخل قلبها؟، اتجهت إلى غرفة جدتها لتلقي عليها نظرة حانية ربما تخفف ما تشعر به من ذنب، في الفترة الأخيرة أهملت رعايتها وهي في أشد الحاجة إليها، انهمرت الدموع من عينيها حينما تذكرت ما فعلته هذه العجوز من أجلها وكيف حمتها واحتضنتها في وقت تخلى عنها الجميع وأولهم أبويها، بعدما دثرتها في الفراش تذكرت طفليها لقد غفلت عنهما، خرجت تبحث في غرف المنزل وجدتهما في غرفتها الصغيرة يجلسان على سريرها و يعبثان بمجموعة صور لها وهي صغيرة.

ابتسمت برفق واتجهت تتصفح معهما صورها القديمة، أمسكت صورة كانت لها وهي لا تتجاوز العاشرة تمسك بدميتها و في عينيها آثار دموع حبيسة، أفاقت من ذكرياتها على رنين جرس البيت، هرولت لتفتحه فوجدت طفلا صغيرًا يمدّ يده بكيس داخله علب من الدواء واليد الأخرى بآخر يفوح منه رائحة الطعام، صمتت للحظات تتفحص الكيسين ونظرات الطفل محدقة إليها،ثم أخذتهما، ساورها شعور غامض فأقلقها حينما فطنت من هو الذي أرسل هذين الكيسين؟!، كانت تتمنى لو تعيدهما إليه، فهو يثير الريبة والشك في قلبها ؟!، غالبتها أسئلة كثيرة:

-كيف تجرأ أن يدخل هذا البيت، والأدهى جراءة نظراته إليها، واصطدامه بها من قبل ؟!.

كلما تحاول أن تحسم الأمر تجد القدر يقربه لها، ليس بوسعها الإفلات منه، أخرجها رنين هاتفها من شرودها اتجهت إلى حقيبتها والتقطته، تأففت ضيقا وفتحته قائلة:

-قبل أي سب ولعن وخلافه، جدتي مريضة واتصلت بي!.

قاطعها قائلا:

-ومتى ستعودين؟!.

-حينما تستطيع جدتي النهوض عن السرير.

سمعته يتأفف ويصيح غضبًا وأغلق الهاتف، كادت أن تبصق على الهاتف لكنها تراجعت، ثم أخذت الدواء واتجهت لغرفة جدتها أيقظتها وأعطتها جرعة منه ثم اتجهت إلى المطبخ وأخرجت كيس الطعام تعلوها ابتسامة رقيقة وانتفاضة قلب غامضة كغموض نظرات هذا المجهول، بعد مرور بضع ساعات خرجت إلى الشرفة تفكر في الندوة التي أخبرها بها أستاذها، هي فعلا فرصة لا تعوض ربما تفتح طريق أمل لا تنقطع ثماره.

وقفت تنظر يمنة ويسرة على المنازل المتراصّة أمامها، منذ سنوات لم تقف في هذه الشرفة، وقبل زواجها أيضًا قلما أطلت منها لتنظر إلى الشارع، طوال الوقت ساكنة

فـــي غرفتهـــا لا تخـــرج منهـــا إلا للـــذهاب إلـــى الدراســـة أو كـــي تلبي ما تحتاجه جدتها منها.

وبينمـــا كانـــت ترفـــع وجههـــا إلـــى أعلـــى تتطلـــع فـــي الشـــرفة التـــي أمامهـــا، باغتتهـــا نظرتـــه فارتجفـــت فرائصـــها، ورجعـــت إلـــى الوراء تصطدم بالحائط، دون أن تدري قالت له بعفوية:

-من أنت؟!.

أجابتهـــا عينـــاه برســـائل غـــزل معبقـــة، تـــرك نظراتـــه تخبرهـــا عمـــا عجـــز عنـــه لســـانه، أخجلتهـــا تلـــك النظـــرات المتمعنـــة فيهـــا، هرولت إلى الداخل وهي تتمتم:

-مجنون، حقًّا مجنون!.

ســـرعان مـــا انتبهـــت إلـــى صـــوت هاتفهـــا مـــرة أخـــرى، أســـرعت وفتحت الاتصال حينما علمت أن المتصل أستاذها:

-وعليك السلام أستاذ صالح.

-انتظـــرت أن تخبرينـــي ردك النهـــائي كـــي أخبـــرهم ليعـــدوا للندوة.

صمتت لحظة وقالت بثقة:

-إن شـــاء الله أســـتاذي سأحضـــر فـــي نفـــس الموعد،الثامنـــة مساء.

-تهانينـــيدتي.

لمست صوته المزدان بالسعادة في أذنيها فاندفعت قائلة:

-ليتني أستطيع أن أرد جميلك أستاذ صالح، تأسرني دوما بكرمك ورقي أخلاقك.

-سيدتي لا داعي لهذا الكلام، في أشد اشتياقي لأرى ابنتي وتلميذتي تتألق على منصة الإبداع.

ترقرقت عيناها بالدموع عندما سمعت منه كلمة ابنتي، أدرك هو أيضًا أنها صمتت فلم يثقل عليها، استأذنها وأغلق الاتصال، ارتمت على الأريكة، تتساءل:يا لها من كلمة رقيقة، دافئة حينما قال ابنتي!، لو يعلم كم أشتاق أن ارتمي في حضن والدي ويسمعني هذه الكلمة، جففت دموعها، فلم تعد تجدي الآن واتجهت لغرفة جدتها تلقي عليها نظرة فوجدتها تغطّ في نوم عميق، أخذت طفليها أيضًا في حضنها وغاصت في نوم عميق كي تهرب من أي تفكير يشغلها عن الغد وبعد الغد، أثناء استيقاظها لصلاة الفجر تذكرت مدرسة طفليها واليوم انتهاء امتحاناتهما، حتما لابد من قطع المسافة الطويلة تلك إلى المدرسة، نهضت مسرعة وأيقظتهما، صنعت بعض الشطائر واتجهت إلى غرفة جدتها، تهلل وجهها عندما رأتها مستيقظة تصلي أيضًا، وقفت لثوانٍ تتطلع إليها بحب واشتياق، وما أن أنهت صلاتها، أسرعت إليها تقبل يديها وتذرف الدموع:

-حمدا لله على سلامتك، أقلقتني عليك.

ربتت على كتفها بابتسامة حانية:الحمد لله صمتت جدتها برهة وتساءلت في قلق:

-هل ستخرجين الآن؟!.

-اعـــذريني جـــدتي ســـأتركك لبضـــع ســـاعات، فـــاليوم آخـــر امتحانات أولادي ولا بد من الذهاب إلى المدرسة.

-الآن يمنى؟!.

-حتمـــا الآن المســـافة طويلـــة جـــدا، آمـــل أن ألحـــق الموعـــد قبـــل غلق الباب.

-هيا ابنتي ولا تقلقي علي.

-جدتي سأرسل إليك جارتنا.وصمتت لا تدري اسمها.

ابتسمت جدتها وقالت:

-تقصدين أم عصام؟!.

-أليس عصام أخاها؟!.

-بلى، واسم ابنها أيضًا عصام.

أومأت يمنى برأسها:

-وقالـــــت حســـــنا جـــــدتي أســـــتأذنك الآن وقبلـــــت جبهتهـــــا وانصرفت.

حينمـــا هبطـــت إلـــى الشـــارع طلبـــت مـــن ابنهـــا أمجـــد أن يصـــعد إلـــى الـــدور الثـــاني ويطـــرق البـــاب علـــى أم عصـــام،كي يخبرهـــا أن تـــذهب لجـــدتها العجـــوز ترافقهـــا حتـــى يعـــودوا مـــن المدرسة.

أمسكت طفليها تشق الشارع المظلم لتصل لنهايته حتى تستقل أي سيارة أجرة لتصل إلى المدرسة، تنصت إلى ترتيل آيات القرآن في صلاة الفجر فتبعث لها الأمان وهي تسير وحدها، رفعت بصرها للسماء فبدا انشقاق تباشير الصباح من لثام الليل، تدعو ربها أن يعينها على تحمل تلك المسئولية وحدها، انتبهت لصوت منبّه سيارة من الخلف، فأفسحت لها الطريق وركنت على الرصيف كي تمر ، لكنها فوجئت بالسيارة تقف بجوارها، ارتجف قلبها خائفة، فأدارت وجهها ناحية السائق، فإذا هو عصام يبتسم لها، ترجل من السيارة وفتح لها الباب الخلفي لتركب هي وطفليها، حدقت إليه باستياء وغضب، وتركته لتستكمل طريقها، هرول وراءها قائلا بعصبية:

-لمَ لا تركبين ؟ أتظنين أن أتركك تبحثين عن سيارة في هذا الوقت.

نظرت له بسخرية وغيظ:

-لكني لم أطلب منك أن توصليني، لو سمحت ابتعد عن طريقي .

وقف أمامها قاطعا عليها الطريق:

-إذن لن أتركك تركبين سيارة أجرة وحدك، انتظري، وقفت متسمرة تراقبه.

ماذا سيفعل هذا المجنون؟!.

اتجه إلى سيارته وأدارها سريعا، وانطلق بها للخلف يراقب من مرآتها الطريق حتى عثر على مكان صغير ليركنها فيه، ترجل منها وأغلقها، ثم هرول إلى يمنى، أوقف لها سيارة أجرة وفتح لها بابها الخلفي لتركب هي وطفليها، وركب هو بجوار السائق،طلب منه أن يسرع حتى لا يفوت الأولاد موعد الاختبار.

لم تنبس يمنى بحرف، بل تركت عيناها تختلس النظر إليه وهو يتطلع إليها من مرآة السيارة، ورغم حيرتها من أفعاله ودهشتها من نظراته لا تشعر بأي خوف أو قلق مما يفعله، كان قلبها ينتفض ليعانق ذاك الإحساس الناشئ الذي ولد من وهج نظراته العميقة الغامضة.

(28)

قبيل السابعة والنصف صباحا كانت قد وصلت هي وطفليها أمام باب المدرسة، ترجل عصام يفتح لهم الباب، وقبل أن تدخل الطفلين المدرسة سألها:

-ستعودين مرة أخرى لجدتك؟!.

ودعت طفليها بقبلة وابتسامة حانية ورفعت بصرها إليه:

-ليس الآن.سأعود كي آخذ بعض ملابس من منزلي وأنتظر موعد خروج الطفلين ثم اتجه لجدتي.

-إذن اركبي السيارة مرة أخرى لأوصلك لبيتك، لا يزال السائق منتظرًا.

حدقت إليه بحدة:

-أشكرك، منزلي ليس بعيد من هنا.

تملقها بنظرة وابتسامة وتركها متجهًا إلى سائق السيارة، ركبها وانطلقت تبتعد عنها، ظلت تتبع السيارة بنظرها حتى اختفت، طردت أي تفكير الآن إلا أن تنجز مهمة ذهابها لمنزلها، دعت ربها ألا تجد زوجها هناك لا تتمنى أن تقابله ، أسرعت الخطى ولا زالت صورة عصام تراودها فتبتسم.

فتحت باب منزلها بتوجس وحذر، دلفت خلسة إلى غرفة نومها بعدما تأكدت عدم وجود زوجها في المنزل، استأت غضبا وغيظا، فقد وجدت البيت غير منظم كما تركته والمطبخ يعج بالفوضى والأطباق المتسخة، كأنها غابت عن البيت شهرا، لم يكن يوما على ما رأته من فوضى في الغرف، تركت كل شيء كما هو حتى لا يدرك أنها عادت فيظن أنها تتحجج بمرض جدتها فيسمعها كلماته اللاذعة ويأمرها أن تعود فورا، أسرعت إلى غرفة طفليها وجمعت بعض ملابس تكفيهما أسبوعا أو أكثر، كذلك انتقت بعض أثواب لها تزدان بالألوان المتناسقة الجميلة، ثم سحبت حقيبة كبيرة من فوق خزانة الملابس وجمعت فيها تلك الأشياء، وقبل أن تخرج لمحت بعض أدوات الزينة لديها من مساحيق ومشغولات ذهبية وقفت تتطلع فيهم وتقلبهم بين يديها، مدت شفتها تتذكر متى اشترت هذه الأشياء، ابتسمت ساخرة تتمتم:

-يااا منذ أشهر، ، أكان شراؤهم فضولا أم دافعا فطريا؟!.

دستهم في حقيبتها،وألقت نظرة أخيرة على المكان ثم نظرت إلى ساعة الحائط، قد أوشكت على الثانية عشرة، رفعت حقيبتها بإعياء عن الأرض واتجهت إلى المصعد، استقلت سيارة أجرة لتصل إلى مدرسة طفليها قبل خروجهما، تنهدت تنهيدة ارتياح لأنها لن تتكبد ثانية عناء مثل مشقة هذا اليوم، أخيرا انتهت امتحاناتهما، سرعان ما تنبّهت أن الأمر لم ينته بعد، وماذا عن المركز؟!، ستضطر

أن تقطع مثل هذه المسافة مرتين كل أسبوع إلى أن تعود لبيتها،تمتمت داخلها:

-يا الله أعيني يا رحيم !.

أوقفت السائق أما باب المدرسة وطلبت منه أن ينتظر حتى تحضر طفليها، ترجلت سريعا، انتظرت دقيقة حتى لمحت الطفلين، فلوحت إليهما، جاءا يسرعان، قبلتهما وقفلت عائدة إلى السيارة، ما أن خرجت من الباب فوجئت بعصام يقف أما سيارته بابتسامته الهادئة ونظرته الغامضة، ،تسمرت للحظة، لم تتوقع أن يأتي ثانية، على رغم رجفة قلبها حينما رأته لكنها تشعر بأن الموقف لابد أن يقابل بالشدة، فهي امرأة متزوجة تخشى أن تحوم حولها الإشاعات لو رآها أحد من جيرانها، والمصيبة الأدهى لو لمحهما زوجها.أغمضت عينيها تستوعب وجوده أمامها واندفعت قائلة:

-خيرا أستاذ عصام ؟!.

ابتسم محاولا تدارك الموقف، أجابها:

-كنت قريبا من هنا، وفجأة تذكرت مدرسة الطفلين حينما مررت الآن، فقلت لعله خير أن أوصلكم معي؟!.

نظرت له ساخرة لم تقتنع برده وقالت:

-أكنت قريبا من هنا!، كيف قطعت كل هذه المسافة ثم رجعت إلى سيارتك، ثم عدت بها ثانية إلى هنا؟!.

خفض بصره في الأرض لا يجد إجابة مقنعة، حملقت إليه في حدة وقالت:

-حقيقة لا أجد مبررًا لأفعالك هذه.

أدار نظره عنها يداري خجله، هو نفسه عاجز أن يبتعد عنها،كلما حاول اشتد شوقه إليها، صاحت قائلة:

-لو سمحت أفسح لي الطريق.

تنبهت لصوت منبّه سيارة الأجرة يضغط عليه السائق في ضيق، وقبل أن تسرع إلى السائق سمعته يناديها:

-يمنى.

التفت إليه مأخوذة من مناداتها باسمها دون حواجز أو ألقاب، كأنه يعرفها منذ زمن!، وما أن التقت عيناها بعينيه لانت ملامحها وهو يترجاها أن تقبل طلبه ولا تمانع،فنزلت عند رغبته، وشعرت بالدفء يملأ قلبها والعاطفة تجتاح كيانها، فطأطأت رأسها خجلا وهو يقول لها:

-أرجوك اقبلي طلبي.

لمح إيماءة خفيفة منها بالموافقة، فأسرع إلى السائق دفع له أجرته وحمل الحقيبة في سيارته، وفتح لهم الباب الخلفي وهو مبتسم، ركبت دون أن تنطق بحرف، فتح الباب الأمامي وأخذ مكانه خلف المقود وقبل أن ينطلق ألقى عليها نظرة من المرآة الأمامية، فأشاحت بوجهها عنه خجلا تداري ابتسامتها،انزوت بفكرها عنه، وشردت

في سير أمورها، وكيف تغيرت حياتها، فلم تعد يمنى ذات الشخصية القديمة، الآن في داخلها كيان يصنع من جديد، تتحسس كل أركانه وإن كانت جافة باردة لكنها أشد صلابة وتحمل عما قبل، أضحت تخطط وتترقب الفرصة السانحة للتنفيذ، ما يحيرها الآن ذاك الشخص الذي يجلس أمامها، أدارت وجهها فجأة إليه، وجدته محدقا إليها شاردا أيضًا في شرودها، نظرته جريئة تحاول أن تخترق تفكيرها، التفتت على سؤال طفلها أمجد قائلا:

-أمي ما اسم عمي هذا؟!.

نظرت لطفلها بعينين حائرتين ولم تجب، التفت له عصام قائلا:

-اسمي عصام وأنت ما اسمك؟!.

-اسمي أمجد وهذا أخي إيهاب.

ابتسم عصام ابتسامة طفولة يمازح الطفلين قائلا:

-هل يمكن أن نكون أصدقاء؟!.

ضحكا أمجد وإيهاب ببراءة وقالا:

-لكن أنت صديق كبير جدا.

ضحكت يمنى على كلامهما تضرب كفا بكف، رفعت نظرها لتجده يحدق إليها شاردا في ضحكتها، تورد خدها خجلا

وأشـــاحت بوجههـــا بعيـــدا عنه،وســـاد صـــمت قلـــق، أراد تحريـــك هذا السكون فابتسم قائلا:

-أمجد.

رد أمجد:

-نعم.

رمقها في المرآة وهو يستطرد:

-ضحكتك وعيناك جميلة جدا!.

وشـــرع يدنـــدن بعـــض كلمـــات بصـــوت نـــدي كانـــت قصـــيدة مطلعها:

"أحبيني

أحبيني بلا عقد

وضيعي في خطوط يدي

أحبيني.لأسبوع.لأيام.لساعات

فلست أنا الذي يهتم بالأبد

أنا تشرين.شهر الريح

والأمطار.والبرد

أحبيني بكل توحش التتر

بكل حرارة الأدغال

بكل شرارة المطر

ولا تبقي ولا تذري

أحبيني"

قاطعته متسائلة:

-أهذه لنزار قباني؟!.

أومأ برأسه منتشيا:

-أجل .

صمتت برهة تداري ابتسامتها:

-مجنون!.

اختلس نظرة مبتسمة وقال في هيام:

"أجل مجنون

كيف من يرى عينيها ولا يجن

ويرى جمال ابتسامتها ولا يرق

ورحيق شفتيها ولا يهيم شوقا

أجل مجنون، مجنون."

فـإذا هـي تخـتلس إليـه نظـرة هادئـة، تمنـت لـو تطـول كلماتـه، سـرحت فـي عـالم آخـر، لأول مـرة تجتاحهـا هـذه العاطفـة المتدفقـة مـن ثنايـا القلـب، تغمرهـا بشـعور جـذاب يتسـلل بتـأنٍ وحـذر ليحتـوي كيانهـا كلـه، مـا عـادت تقـدر أن تقاومـه أو حتـى تهـرب منـه، يتعمـد أن يشـدها إليه،يـدخلها فـي مـروج خياله.

(29)

(أستاذة يمنى، أستاذ صالح ينتظرك في المكتب).

هذه العبارة قالها القائم على ترتيبات الندوة قبل البدء بنصف ساعة، اتجهت يمنى إلى مكتب أستاذها تتألق بالثوب الفيروزي الفضفاض والحجاب الطويل المتناسق مع لون الثوب، تبدو كبدر سطع في ليلة ظلماء، طرقت على الباب بخفة فأذن لها، استقبلها بابتسامة رقيقة تهدئ من الرهبة التي تلمع في عينيها، فبادلته بابتسامة حماس، أشار لها أن تجلس على الكرسي أمامه وسألها:

-سيدتي، أمستعدة؟!.

أومأت برأسها:

-أجل أستاذي.

صمت برهة وقال بثقة:

-ندوة الليلة سيتوقف عليها مستقبل قادم لكِ.

أومأت برأسها ثانية تحاول أن تتمالك قوتها وتهدئ من رجفة قلبها.

-سأطلب لك قدحا من القهوة.

-أجل.

تركها منغمسة في التفكير، استرخت على المقعد قليلا وأغمضت عينيها تستنشق نفسا عميقا ثم تخرجه ببطء، هيمن عليها شعور جديد، إحساس بانتفاضة طموحة تتوق إلى الإثبات، ورغبة عارمة للتحدي والنجاح، حتما ندوة اليوم سيتوقف عليها قرارات قادمة ربما سيترتب عليها الكثير والكثير، وقبل أن تنهض عن مقعدها لاحت أمامها صورة عصام، فصمتت لحظة وهمست قائلة:لقد حانت حينونة الردع، وهذا أول قرارات الحسم!

تصلبت نظرتها برهة ونهضت تعدل من هندامها، تصفحت حاسوبها وتأكدت من إعداد كل شيء يخص ندوة الليلة، ثم لملمت أشياءها واتجهت إلى قاعة الندوة في الطابق الأول كانت مساحتها كبيرة تضم فوق الألف شخص بالإضافة إلى شاشة عرض كبيرة فوق منصة مستطيلة، مجهزة على أعلى تقنية فنية، علاوة على صفوف القاعة ممتلئة بالحضور خلاف المادة الإعلامية المكثفة عن ندوة الليلة، فقد كانت لها الأثر البالغ في كثافة العدد، وتسليط الأنظار على سيدة الليلة.

بالتأكيد هذا العدد أثار هواجس الرهبة والقلق في البداية وخاصة حينما تكون أول مواجهة مع جمهور كبير، لكن يمنى استطاعت أن تتمالك نفسها وتشحذ قوتها وتقدمت بخطى ثابتة من وراء الكواليس، إلى أن التقت بالحضور وجها لوجه، استقبلتهم بابتسامة هادئة ونظرة واثقة، ألقت عليهم التحية، فاستقبلوها بابتسامة ترقب ومزيج من

الفضول، فتحت حاسوبها وشرعت في عرض بحثها عبر تحريك الصورة على شاشة العرض، لا تزال تتقمص حركات أستاذها صالح، تقلد إتقانه في الإدارة واستغلاله لغة الجسد في التواصل، فكستها نوعا من الثقة والثبات. كانت تتحرك بطريقة آلية متجنبة تماما النظر في عيون الحضور حتى لا يشتت تفكيرها وهي لا تزال نبتة صغيرة في ذاك المجال.معظم ما طرحته تجربة حياتها التي تمر بها، وكأن البحث ترجمة عنها كنموذج حقيقي وإن كانت مخاطرة، لكن لن يقدمها خير ممّن عاشها،أكسبتها التجربة سدادًا للرأي،ومنحتها مصداقية في الطرح. مضت الساعتان وهي تتحرك على المنصة كممثل مسرحيّ مبتدئ يقدم أول عرض له،تتلاشى رهبته رويدا، رويدا حتى يندمج مع العرض والجمهور ويضحى لا يرى إلا هو وفقط. وإن كان أداؤها يفتقد شيئا من حرفية وإتقان إلا أنها تألقت وتركت ابتسامة إعجاب على وجوه الحضور زادت حتى تضخمت لنظرات انبهار. بعدما أنهت عرض مادتها، ودعتهم بنظرة أكثر ثقة وأشد جسارة تعلوها ابتسامة تقدير وشكر، فكان منهم أن ودعوها بالتصفيق الحاد مصاحبا بكلمات إطراء تنم عن قبول واقتناع. دلفت يمنى سعيدة منتشية فوجدت أستاذها يستقبلها خارج القاعة، يكفي ابتسامته التي تملأ وجهه ونظرة انبهار تشع من عينيه، ما أجمل إحساس المعلم حينما يرى ثمرة جهده، وصدق حدسه فيما انتقاه! اندفع قائلا:

-لا تعليـــق، المشـــهد يتحـــدث عـــن نفســـه ولا يحتـــاج بعـــده أي كلام.

صمتت هنيهة وقالت بحماس:

-وما على التلميذ إلا أن يقف إجلالا وتحية تقديرًا لمعلمه!.

ضحك قائلا:

-أخبريني سيدتي من الأستاذ الآن؟!.

وقبـــل أن تجيبـــه انتبهـــت علـــى صـــوت رســـالة وصـــلتها علـــى هاتفهـــا، اســـتأذنت منـــه أن تقرأهـــا التقطـــت هاتفها،وفجـــأة ارتجف قلبها وتبدلت ملامحها، كانت الرسالة:

-(أميرتي.كنـــت ســـأجنُّ وأنـــت ســـاطعة كالبـــدر ونظـــراتهم ســـهم يختـــرق قلبـــي، أغـــار عليـــك مـــن نســـمة هـــواء لـــو لامســـت خـــدك، أغـــار عليـــك مـــن نظـــرة لـــو لمحـــت وجهـــك، ليتنـــي فـــارس لخطفتـــــــك إلـــــــى ســـــــحاب لا يعرفـــــــه أحـــــــد. أميرتي.إني أحبك).

لاحظ أستاذها تبدل ملامحها وارتعاش يديها، فسألها:

-يمنى ما بك ؟!.

أفاقـــت مـــن شـــرودها، حـــائرة لـــيس لـــديها أي احتمـــال بمـــن أرســـــــــــــــــــــــلها إلا هـــــــــــــــــــــــو أجابته:

-لا شيء أستاذ صالح لا شيء.

ارتبكت، فحدقت في ساعة يدها فزاد ضيقها، أوشكت الساعة على الحادية عشرة، المسافة طويلة ربما تصل لبيت جدتها على منتصف الليل استأذنت أستاذها، فقد تأخرت كثيرا، عرض عليها أن يوصلها لكنها رفضت. توقعت أن تجد عصام في وجهها، رسالته تقول أنه كان في الندوة، ولا يزال موجودا حتى الآن، قبل أن تستوقف سيارة أجرة قد تأكدت من حدسها، وجدته أمامها يترجل من سيارته، فأشاحت وجهها عنه يفترسها الغضب، ناداها بابتسامة لامعة بالفرح:

-الأميرة يمنى .

انتفضت تهمس في نفسها:

-إذن هو.تأكدت الآن.

التفتت إليه يتطاير الشرر من عينيها، فأخذت نفسًا عميقًا لتطفئ نار الغضب وقالت بصوت يشوبه البرود:

-أنت من أرسلت لي الرسالة منذ قليل ؟!.

أومأ برأسه قائلا:

-لم أتمالك نفسي وأنا أكتبها كنت تحت تأثير سحر الأميرة.

صمتت لحظة تنظر إلى قدميها اللتين تتحركان بعصبية ورفعت نظرها فجأة وقالت:

-ألم يخبرك أحد أنك سمج وحقير!.

حـــــدق إليـــــه مشـــــدوها لا يصـــــدق مـــــا يســـــمعه.
فاستطردت تشبك يديها في بعضهما:

-ما خطبك بي؟!،

وصاحت:

-أنســيت أنــي متزوجــة، أم تظننــي دميــة رخيصــة للتســلية؟!.
صــدقني لا أخــرج نفســي مــن دائــرة اللــوم فأنــا مخطئــة منــذ البداية أن ركبت سيارتك.

رمقتــه بنظــرة احتقــار مــن أســفل لأعلــى، وأوقفــت ســيارة أجــرة واســتقلتها،تركته مصــدوما كالتمثــال الشــاخص ممــا ســمع كــأن دلو ماء مثلج صب على رأسه في ليلة شتاء باردة.

ولـــــمَ هـــــذه الـــــدموع، وآهـــــات قلـــــب حـــــزين؟!
ســؤالان جــالا فــي عقلهــا وهــي شــاردة قبــل أن تصــل إلــى بيــت جــدتها، تتســاءل عــن ســبب مــا تشــعر بــه مــن ضــيق وألــم!
كانــت تظــن بصــفعها لــه بتلــك الكلمــات ســتجهض هــذا الإحســاس الــذي نمــا داخلهــا، ســتعيد دقــات قلبهــا لمــا كانــت وتمحــو رعشــتها حينمــا تــراه، لكنــه تــرك فــي قلبهــا شــرخا يخترقــه ولا تقــدر أن توقفــه، هــو ســهم رشــق فــي القلــب دون أن تـــــــــــــدري متـــــــــــــى أصـــــــــــــابها.
ترجلــت مــن الســيارة وحــدقت فــي ســاعتها، تجــاوزت منتصــف الليــل، صــعدت الســلالم بترقــب، لــولا أن جــدتها اســتردت جــزء مــن صــحتها وأوصــتها علــى الطفلــين قبــل أن تخــرج، لكــان

الوضـــع أكثـــر ســـوء وقلقـــا، وقفـــت أمـــام بـــاب الشـــقة وفتحتـــه بحـــذر ودلفـــت داخلهـــا وقبـــل أن تغلـــق البـــاب انتفضـــت علـــى صوت يقول ساخرًا:

-لا يـــزال الوقـــت مبكـــرًا!، هيـــا أكملـــي ســـهرتك هيـــا.

(30)

كان من المتوقع أن ترتعب يمنى وترتعش خوفا من فجأة هذا الموقف، آخر ما كانت تتوقعه أن ترى شوقي أمامها في هذا الوقت المتأخر من الليل، إنما الغريب أنها التفتت إليه ووقفت ثابتة تبتسم بسخرية، تحدق إليه بنظرات تبوح بما تكنه في قلبها لهذا الكائن.

تحركت بثقة وعدم اكتراث لكلامه ولا نظراته التي يتطاير منها الغضب تفوح منه رائحة الافتراس، ودّ لو ينقض عليها ويمزقها بيديه، لكن نظراتها له ألجمت لسانه وأصابته بحالة من الذهول والدهشة، أهذا سلوك امرأة مخطئة تفاجئ زوجها بخروجها دون إذنه ورجوعها بعد منتصف الليل ؟!، فالتي تفعل هذا تقف مرتعبة تبكي وتنتحب تواري نظرها، تبلع لسانها ولا تجد كلاما يبرر خطيئتها.

هذا ما كان يمنّي به نفسه، وكأنه سيثأر لرجولته، سيجلدها بأفظع السباب، قبل أن يصفعها بيديه، بل لن يكفيه هذا، سيجعلها تقبل يديه ورجليه كي يسامحها ويغفر لها، وبعد ذلك ربما يتنازل ويسمع دفاعها عن نفسها. ،لابد أولا أن تذلَّ أنفها أمامه ويتمرغ لسانها بالتوسلات حتى يقبل أن يسمع لها!

في تلك اللحظة كاد الغيظ ينهشه لقد خرجت دون إذنه، كيف تجرأت أن تفعل هذا وطوال العشر سنوات لم تفعل

صـــــغيرة ولا كبيـــــرة إلا بعلمـــــه، أمعقـــــول كانـــــت تســـــتغفله ؟!أجعلتـــه مثـــل قطعـــة أثـــاث فـــي المنـــزل للزينـــة فقـــط، أم مثـــل دميـــة حقـــل لـــيس لهـــا أي قيمـــة؟!، يـــا لـــك مـــن حقيـــرة. كـــان عقلـــه يفـــــوح برائحـــــة الاحتـــــراق يكـــــاد أن يشـــــتعل وهـــــو جـــــالس يتفحصـــــها مـــــن أســـــفل لأعلـــــى، متمعنـــــا فـــــي ثوبهـــــا ونضـــــارة وجهها.

ألقـــــت عليـــــه نظـــــرة جريئـــــة وســـــحبت كرســـــيا، جلســـــت دون أن تنطق. انتفض واقفا يكاد يصفعها لكنه تماسك وقال:

-يا لوقاحتك!.

استرخت على الكرسي في تعالٍ وقالت:

-ليس غريب عليك سلاطة اللسان!.

انـــدفع إليهـــا يكـــاد أن يلكمهـــا علـــى وجههـــا، لكنـــه صـــعق حينمـــا فاجأته رادعة جماحه قائلة:

-اجلس لا داعي إلى أن تتهوّر.

"أجـــل هـــذه ليســـت يمنى"هـــذا مـــا جـــال فـــي خـــاطره وهـــو يجلـــس مصـــدوما ممـــا يســـمع، ظـــل يرمقهـــا بنظـــرات مختلطـــة مـــا بـــين الـــذهول والغضـــب، حتـــى كـــادت أن تفقـــده عقلـــه وهـــي ترمقـــه بنظـــرة احتقـــار ممزوجـــة بـــالكره، نهضـــت تتحـــرك أمامـــه ثـــم رفعـــــت نظرهـــــا فـــــي وجهـــــه وصـــــفعته بالكلمـــــة القاضـــــية:

-أتمنى أن ننفصل بهدوء حفاظا على معنويات الطفلين.

هي لم تصفعه فحسب بل صدمته وحطمت كل توقعاته عن تبريرها لهذا الذنب الشنيع شلت تفكيره، لم يتخيل يوما أن تفلت قطته المسكينة من قفصه المحكم، بعد كل هذا الترويض تتمسكن حتى تتمرد على سيدها، لقد حفرت قبرها بيديها.

تراجع بغتة قبل إقدامه على خطوة الهجوم وأخذ نفسا عميقا يكاد يختنق، الغضب يفترس عقله، وأراد رد الصفعة فقال:

-يا حقيرة، تريدين الطلاق حتى تتسكعي في الشوارع وتأتي بعد منتصف الليل، أم تظنين لا أعرف بحكاية من ركبت سيارته أمس .

التفتت إليه وقد توقعت أن يمارس عادته الدنيئة ويعقد جلسة استجواب لطفليها ليستنبط ما يريد أن يوهم نفسه به ليبرر أفعاله معها، تعلم أنها أخطأت حينما استقلت سيارة عصام، لقد رقّ قلبها أمام اهتمامه ونظراته العميقة، ضعفت أمام كلمات غزله، أليست أنثى؟! ليس من السهل أن تقاومه أو أن تتشبث بالورع قبل أن تنجرف في تياره لكنها لم تعد سليمة فقد أصاب قلبها، وكيف لا يرنو إليه وهو قلب أخضر ساذج لم يذق طعم هذه الأحاسيس من قبل، أجل أخطأت لكنها تداركت هذا الخطأ وصفعته أيضًا بما يناسبه، صمتت لحظة ولم تعطه جوابًا يشفي غليله، ألقت عليه نظرة أخيرة وقبل أن تنصرف إلى غرفتها، قالت له في ثقة:

-أظن مهلة أسبوع كافية أن تنهي إجراءات الطلاق.

وما أن ألقت كلماتها، حتى فوجئت به يجذبها إليه بعنف، يصفع وجهها يمنة ويسرة قائلا:

-آه يا سافلة، وكأنك لم تفعلي شيئا، سأقتلك،ولوى ذراعها خلف ظهرها .

صاحت تصرخ:

-ذراعي يا مجنون سيكسر.

وفجأة صرخت بصوت عالٍ، رماها على الأريكة بعد أن شعر بكسر ذراعها، تنهد بعمق ورمقها بنظرة تشفي وقال:

-نهايتك على يدي قبل أن أطلقك يا حقيرة.

تركها تصرخ من الألم ممسكة على ذراعها الذي بدأ يتورم ويتبدل للون الأزرق وهرول يجري على السلالم كأنه قاتل هاربا من موقع جريمته، استيقظت جدتها والطفلان على صراخها، فزعت من حالتها فصاحت تصرخ، والطفلان يبكيان بجوارها.

في تلك اللحظة التي خرج شوقي من باب بيت الجدة كان عصام يركن سيارته أمام بيته، يبدو على عينيه آثار دموع وكأنه فقد عزيزًا غاليًا، ما أن لمح شوقي انتابه القلق لا يعرف أنه زوجها،حالة شوقي وهرولته لا توحي بخير، زاد قلقه حينما سمع صراخ الجدة، فصعد يهرول على

السلالم، صدم فتصلب مشدوها، حينما رآها مغشيا عليها وذراعها متورم يميل كف يدها للزرقة، كل ما جال في خاطره كيف ينقذ حبيبته التي ملكت قلبه منذ سنوات، محا تماما من ذاكرته ما فعلته به منذ سويعات وأضحى قلبا يتمزق، ينزف من القلق.

تسمر للحظات لا يدرك ماذا يفعل، حتى أفاق على صوت الجدة وهي تتوسل إليه أن ينقذ هذه المسكينة.

صاح قائلا:

-أعطيني وشاحا طويلا ألف ذراعها أولا، فالكسر كبير، أخذها بين يديه وشرع في لفّ ذراعها برفق وتأنٍ يدرك جيدا خطر تحرك هذا الكسر من مكانه.

لا يدري بأفعاله، يتصرف بشكل لا إرادي، في حالة تشبه المنام، بل لم يتخيلها من الأساس في حلمه، سقط حجابها فانكشف شعرها بدت طفلة بريئة وديعة يتصبب جبينها عرقا، أغراه منظرها فأجج نار الحب داخله، أغمض عينيه عنها وطلب من جدتها أن تعدل حجابها.

نادى بصوت حاد:

-أمجد لا تبك أنت رجل، هيا تعال معي لنذهب بأمك إلى المشفى؟!.

حملهـــا بـــين ذراعيـــه يحـــبس دموعـــه التـــي انهمـــرت منـــذ ســـاعات بســـببها، كانـــت غائبـــة تمامـــا عـــن الـــوعي، لا تـــدري على ذراعي من تحمل الآن.

(31)

آآآهٍ يـــــــــا مـــــــــن ملكـــــــــت فـــــــــؤادي!
مـــــا أقســـــى اللحظـــــة التـــــي أمـــــر بهـــــا الآن!
قلبـــي ينفطـــر وأنـــت فاقـــدة الـــوعي بعـــدما كنـــت وردة مزدانـــة تـــتلألأ فـــي بســـتان قلبـــي، لا أطيـــق أن أرى زهرتـــي ينالهـــا خـــدش، ســـأجنّ ليتنـــي أعـــرف مـــن ذاك الشـــخص الـــذي فعـــل بـــك هـــذا ؟!
لـــو وقـــع تحـــت يـــدي ســـأقتله، حتـــى لـــو كـــان زوجـــك.
رغـم مـا تسـاوره الحيـرة مـن أسـئلة محـاولا كتمـان آهـات قلـب مكلـوم، كـان يـدرك قـوة كلماتهـا معـه حينمـا صـفعته بنظـرة احتقـار كـادت أن تفتـت قلبـه لكنهـا أعادتـه إلـى رشـده، وأيقظتـه علـى حقيقـة مـرة حـاول مصـرًّا أن يتناسـها، لا يـدرك غيـر أنهـا حبيبتـه وفقـط.
انطلقـت سـيارته بأقصـى سـرعة تشـق الظـلام فـي سـاعة أوشـكت علـى بـزوغ فجـر جديـد لا يـدرك مـا يخفيـه لـه مـن مصـادفات معهـا، كـل حـين يلقـي عليهـا نظـرة ألـم مرسـومة علـى وجهـه البـائس، لعلهـا تسـمع دقـات قلبـه فتفيـق مـن غيبوبتهـا تلـك، أو تحـس بدموعـه الحبيسـة فتعـود مـن غفوتها.

التقـت عينـاه بعـين طفلهـا الصـغير أمجـد، فبـادره بابتسـامة حنونـة كـي يخفـف مـن دموعـه المنهمـرة التـي لـم تجـف مـذ أن رأى أمه على هذه الحالة.

في غضون دقائق كان قد وصل إلى مشفى قريب، ترجل من السيارة يصيح في موظف الاستقبال أن يسرع بإبلاغ الأطباء كي ينقذوا تلك المسكينة التي يحملها على ذراعيه، وعلى إثر صياحه وصراخه في الوجوه انقلب المشفى يهرول لتجهيز غرفة العمليات، فحالته وحالتها كذلك لا تحتملان الانتظار لحظة واحدة، أسند ظهره على حائط، يتمالك أعصابه بصعوبة حتى لا ينهار أمام الطفل الصغير، أشفق عليه فأخذه وأجلسه على مقعد قريب وظل يتابعه بنظره كل حين، وهو واقف يصارعه القلق، ضرب بيده الحائط الذي يستند عليه، علّه ينفث قليلا من نار غضب تأججت داخله، حينما لمح الطبيب خارجا من غرفة العمليات هرول يسأله:

-كيف حالها الآن؟!.

-كسر حاد وتمزق في أنسجة الذراع، اطمئن زالت مرحلة الخطر،لكن...

حدق إليه عصام في توتر ينتظر استكمال حديثه استطرد الطبيب:

-السبب حادثة أم ماذا ؟!فالأمر يستدعي تحقيق ونيابة!.

-لا أدري.حينما تفيق وجّه إليها هذا السؤال!.

-حسنا، ربما تفيق بعد سويعات.

قالها الطبيب وانصرف، أومأ برأسه يخفي قلقه، اتجه إلى مقعد بجوار أمجد وجلس، انتبه لصوت هاتفه، فتحه متظاهرا بالقوة أمام أخته حتى لا تشك في أمره بادرها قائلا:

-هي بخير أم عصام، أخبري الجدة لا تقلق، فلا داعي أن تأتي.

وقبل أن يغلق الاتصال سألها:

-من كسر ذراعها؟.

صمت لحظة وهمس قائلا:

-كما توقعت، الندل، يستأسد على هذه الرقيقة!.

نهض واقفا وقد ثارت كوامنه، ودّ لو رآه أمامه سيطبق على عنقه ولن يتركه إلا جثة هامدة لجّ لسانه بالاستغفار وأخذ الطفل ليصلي الصبح، عاد بعد نصف ساعة يرافقه وجلسا في نفس المكان السابق ينتظرانها حتى تفيق، شعر بالذنب تجاه هذا الطفل فقد بدا عليه الإنهاك والنعاس، ،أخذه بين يديه يمسح دموعه ووضع رأسه على رجله، مدد جسده على المقاعد، ثم ربت على كتفه حتى غاص في سبات عميق. ظل عصام صامتا حتى جذبته ذكريات الماضي، شرد معها تاركا زمامها ليسبح في عبق ماضٍ مازال حيًّا داخله، يراوده بأحاسيس لا تهدأ ولا تنمحي، محفورة بدقات قلبه وآهات حبه. أغمض عينيه ينتشي رائحة ذكرى أول نظرة

وقعت عليها وهي تخطو من بيت جدتها بخجل جذاب، ساطعة كبدر ليلة اكتمال،تحمل حقيبة مدرستها الثانوية، تسير كسهم دون أن تنظر هنا أو هناك تدرك طريقها، دون أن يرافقها أحد، سهم اخترق قلبه من أول نظرة، فانتفض يكاد يقفز من شرفة منزله ليسير وراءها، لا يصدق أن هذه الغزالة المشرقة تسكن في البيت الذي أمامه ولم يرها من قبل، ظل يراقبها بنظراته، يتطلع إلى شرفتها لعلها تلحظه بنظرة من طرف عينيها تبرد قلبه، أو ربما تلبي من طموحه وتبادله بابتسامة تشفق على حال عاشق. حبّه لها ملك كيانه، أضحى لا يرى غيرها، صارت تجري في دمه يتنفس بحبّها، يعيش على أمل أن يجد عملا مناسبا حتى يتقدم ليطلبها للزواج،كان حبه يشبه قطعة جنين بدأت تنبض في قلبه حتى تكونت وصارت جنينًا مكتملا يتحرك في كيانه يتوق للحظة يبوح ليعلن عن وجوده، ويضمها إلى حضنه،كم تلهف أن يضمها إليه، وحلم بأن تكون بين يديه، هي ملكه وحده، له وحده.دوما ردد في لحظات هيامه، إنها ملكة وهو أميرها. هذا ما كان يظنّه حتى أفاق فزعا من سكرة حبه على خبر زواجها من ذاك الكائن الذي كرهه وحقد عليه قبل أن يراه، لقد خطف زهرة بستانه اليانعة،طعن قلبه بسكين بارد، فعجز أن ينزعها من قلبه، مازالت تسكنه وتتربع فيه بعد كل هذه السنوات. لا زال جنين حبّه ينبض داخله، حينما لمحها منذ أشهر اندفع منقادا تحت سطوة هذا الحب، تحت اشتياق جنينه العاشق، يشبه المسحور لا يرى ولا يسمع إلا حبيبه.

انتبه متجهما على صوت الممرضة تخبره أن ساحرته أفاقت الآن. اندفع مسرعا إلى غرفتها وقبل أن يدق الباب تسمر فجأة مترددا حائرًا،يخشى أن تُصدم برؤيته بعدما نهرته ووبخته بنظرات احتقار منذ ساعات، تراجع هامسا:

-لا لن أتحمل نظراتها تلك مرة أخرى، هذه المرة ستقتلني حقًّا.

كل هذا مدعاة لأن يتسمر مكفهر الوجه، طلب من ابنها أن يدخل هو، ثم يخرج يطمئنه عليها. ومأ الطفل وفتح الباب يبكي يهرول إليها ويرتمي في حضنها.

رفعت يمنى جسدها إلى أعلى وذراعها اليسرى محاطة بجبيرة من الجبس تضم طفلها إلى حضنها، تخفف عنه بابتسامة ثقيلة، وبدا على وجهها علامات الضعف والإعياء. بادلتها الممرضة بابتسامة تساؤل:

-غريب زوجك !رغم شدة قلقه عليك أمس وصياحه في وجوه الأطباء لكنه أصر ألا يدخل كي يطمئن عليك.

حدقت إليها يمنى مستغربة لا تصدق ما سمعته زوجي!، التفتت إلى طفلها تعتليها الدهشة قائلة:
-أبوك في الخارج؟!.

صاح أمجد بعفوية:

-لا.هذا عمي عصام .

اتسعت عينيها دهشة مصدومة وسألته ثانية:

-من أتى بي إلى هذا المشفى؟!.

-عمي عصام.

أحست بتسارع دقات قلبها فانكمشت تداري خجلها، قطعا حملها على ذراعيه وهي فاقدة الوعي، انتفض قلبها وارتجفت لا تدري أسببه الخجل منه أم الخجل من توبيخها له؟ شردت تتذكر نظراته إليها، تتساءل في نفسها، لمَ أنت يا عصام؟!كلما أهرب منك أجدك تقترب أكثر! طلبت من الممرضة أن تعدل حجابها، ثم أخبرت طفلها أن يعلم عمه عصام أنها تريد أن تتحدث معه. في أقل من دقيقة كان عصام يدق على باب غرفتها، ودلف داخلها رسم ابتسامة هادئة على وجهه حينما رآها تبتسم كي تواري خجلها بادرها قائلا:

-أنت بخير؟!.

أومأت برأسها وقالت:

-الحمد لله .

التفتت إلى ابنها قائلة:

-أمجد ممكن تنتظر في الخارج قليلا.

أومـــأ الطفـــل برأســـه ونـــزل عـــن ســـريرها، وخـــرج. حـــدق إليهـــا عصـــام مســـتغربا منتظـــرا مـــا تنـــوي أن تفعلـــه نظرت إليه وقالت في ثقة:

-أستاذ عصام ممكن تخبرني بسرّك؟!.

حدق إليها متسائلا:

-أيّ سرّ ؟!.

-سرّ محاصرتك لي!.

ابتسم بألم وقال:

-محاصرة!.

صمت لحظة واستكمل:

-أجل، صدقتِ هي محاصرة.

اتسعت نظرته يخفي عصبيته وقال:

-لأنك لا تشعرين بي.

تصـــلبت نظرتهـــا، ترجـــوه أن يكمـــل. اقتـــرب منهـــا قلـــيلا يبعـــد عينيه عنها وقال:

-أنـــت لا تـــدركين شـــيئًا!. دعينـــي أنصـــرف طالمـــا اطمأننـــت عليك.

-لا.قالتها بحدة وأكملت كلامك يقلقني!.

-سيدتي أرجوك لا تضغطي على الجرح دعيني مثخنًا به، ينزف بهدوء، كما كان منذ سنوات.

-أيّ جرح تقصد!.

ضاقت عيناه قائلا:

-أتريدين أن تعرفي؟!.

-أجل الآن.

-حالتك لا تسمح، فلنؤجل الحديث إلى بعد حين.

وهمّ أن ينصرف أوقفته قائلة:

-أستاذ عصام .

التفت إليها يواري نظرته عنها. استكملت في صوت رقيق متواضع:

-شكرًا.

أومأ برأسه تفضحه عيناه وقال:

-تشكريني على ماذا !ليتني أقدر.

وصمت، أربكتها نظرته فأشاحت وجهها هروبا منها، استطرد قائلا:

-إلى اللقاء يا...

كـــاد أنّ ينطقهـــا ولكنّـــه صـــمت، فـــتح البـــاب وهـــرول مســـرعا،كان يظـــن أنـــه أخـــذ عهـــدا علـــى نفســـه ألا يقتـــرب منهـــا بعـــدما أفاقتـــه مـــن نشـــوة الماضـــي، بكلماتهـــا الحـــادة، ذبحـــت قلبـــه الـــواهم، الغـــارق فـــي حبهـــا حتـــى الثمالة،أخـــذ قـــراره بالســـفر ولـــن يعـــود ثانيـــة إلـــى هـــذا البلـــد إلا جثـــة محفوظـــة فـــي تـــابوت،حتى حـــدث لهـــا مـــا حـــدث، فهـــدمت كـــل قراراتـــه، هكـــذا كلمـــا يحـــاول أن يهـــرب مـــن عـــذاب ذاك الحـــب يعـــاوده الاشـــتياق والحنـــين فيتقلـــب علـــى أشـــواك الفـــراق ولوعتـــه،ظن بســـفره إلـــى لبنـــان بعـــد زواجهـــا مباشـــرة أن مـــا بُعـــد عـــن العـــين، قطعـــا بعيـــد عـــن القلـــب، فاكتشـــف أنـــه رحـــل دون قلبـــه، وحينمـــا تـــزوج مـــن زميلتـــه فـــي العمـــل تأكـــد أن قلبـــه لـــيس ملكـــه، ولـــن يهديـــه لأخـــرى بعـــدها،لم تســـتطع زوجتـــه تحملـــه دون عاطفـــة، فتضـــخم جبـــل جليـــد بينهمـــا ونشـــبت نـــار خـــلاف، مخضـــت قـــرار انفصـــال وطفلـــين، تركهـــا فـــي لبنـــان ومعهـــا الطفـــلان وعـــاد محمـــلا بأوجاعـــه وأحـــلام الماضـــي،إلا مـــن أيـــام أرســـلت لـــه رسالة، تريده في أمر هام، وتنتظره يسافر إليها.

(32)

ظلت يمنى في المشفى أسبوعا تحت فحص وعناية الأطباء، زارتها أمها مرات قليلة مع جدتها وتابعها والدها بالهاتف، كانت تترقب دخول عصام في أي لحظة، فانتظرته خلال هذا الأسبوع كي يزورها ليخبرها عما اتفقا عليه، أو ربما اشتاقت أن تراه، لكنه لم يعد،هي لا تنكر أن تصرفه الأخير معها،أزال ما بنته من حواجز كي تبعده عنها فهي امرأة متزوجة،يحكمها العقيدة والعرف قبل العاطفة والحبّ، لكنه أصاب قلبها فزاد تعلقها به، كانت تمني نفسها أن تراه في المركز حينما عادت منذ شهر لتستكمل عملها كمحاضر فيه، لم يتركها أستاذها حينما علم بما حدث لها، أخبرها أنه أنشأ لها حسابًا في بنك يرسل عليه أجرها كل شهر علاوة على حساب أجرها على كل ندوة تعقدها تبع المركز، مما أعطاها سلطة الاستقلال المادي، فانعكست على توطيد قوتها واستغلال قدراتها في بلوغ غايتها.

مرّ شهر آخر ولم تلمح وجوده حولها كما كانت تشعر به،فزاد قلقها، تظاهرت بالبرود وسألت جدتها عنه، أخبرتها أن أخته قالت أنه عاد من السفر بزوجته المريضة وابنيه منذ يومين، حتما لم تتوقع أن تسمع هذا الخبر، كيف لم تستشف أنه متزوج، وما دخلها بشأنه ؟!ولمَ اغتمت وانتفض قلبها؟!.

لقد ابتعد عنها ورحل كما قالت له، فلمَ تنتظر أن يهاتفها أو يتبعها بنظراته كما كان يفعل؟!.

بعد يومين ذهبت إلى المركز كي تستكمل شرح دروسها، ما أن انتهت المحاضرة وانصرف الحضور، وقفت تجمع حاسوبها وحقيبتها، وفجأة تسمرت قدماها وتصلبت نظرتها اعتلتها دهشة ممزوجة بقلق فقالت بصوت منخفض متوجس:

-شوقي؟!.

كان يقف أمامها حائرًا مذهولا يخفي كثيرا من توتره سألها:

-ألا أتحدث معك قليلا!.

التفتت حولها لا تتمنى أن يسمع أحد حوارهما إذا احتدّ أو خرج عن السيطرة، وخاصة هي تعلم أخلاقه وسلوكه. أخفت ضيقها وقالت:

-لا مانع.

أشارت له أن يجلس وقالت:

-أرجو الالتزام بخصوصية المكان!.

أومأ برأسه وباغتها قائلا:

-ما كنت أتوقع يوما أن تخرجي من غير إذني، وتفعلي ما في رأسك، تغيرت كثيرًا!.

شبكت ذراعيها وارتخت على الكرسي، حدقت به تعلوها نظرة محاسبة وقالت:

-وماذا كنت تتوقع أن أفعل وأنا أتلاشى يوما بعد يوم، ليس معنى الموت أن تنتهي الحياة فحسب، فهناك موت سرطاني يتسلل إلى الروح والأحاسيس فيخنقها بتلذذ، إلى أن تصل لحالة فقدان للشعور وتصبح الحياة بلون ضبابي عديم الإحساس. بالمناسبة لم أذكر اسمك في إجابة أسئلة التحقيق، أخبرتهم أنها حادثة لسائق أحمق نذل، فرّ هاربًا بعد أن صدمني.

زاغت نظراته، يعلم أنها ستسدد له لكمات قوية لن يقدر على تحملها، ولا يريد أن يظهر بلباس جانٍ، وإن كان يرى أنه أخطأ في حقها مرة، فهي التي دفعته لذلك، ورغم هذا سيبلع ما فعلته في حقه، ويضحي في سبيل أن تتنازل عن قضية الخلع!، فاجأته قائلة:

-حاولت أن أحفظ ماء وجهك وننفصل بهدوء، لكنك أصررت أن يشاع الأمر على الملأ.

كتم غضبه قائلا:

-إذن أنت عازمة على الأمر دون رجعة؟!.

أومأت برأسها تأكيدا وقالت:

-أجل.

-وأمجد وإيهاب؟!.

-الآن تذكرهما،منذ متى وأنت تهتم بأمرهما؟!؟

-لسانكِ أصبح سليطًا.

قالها بنظرة توعد. بادلته بنظرة سخرية وقالت:

-من عاشر القوم.

فرك يديه يكبت غضبه وقال:

-فلنعط لأنفسنا فرصة مراجعة!.

خفضت بصرها وشردت قليلا ثم قالت:

-أتظنّ بعدما حدث نمحو ما سطّر و نصلح ما كسر ؟!.

أومأ برأسه في ترقب. استكملت:

-وكيف أمحو آثار إهانتك لكياني كإنسان ومشاعري كأنثى وكل ذرة داخلي محفورة بذكرى سباب أو تحقير!. أخبرني كيف أزيل صفعات يدك التي تخطّ على جسدي أو أعيد مرونة ذراعي كما كانت ؟ أبسهولة هكذا أنسى، وأتجاوب معك، وكأن لم يحدث شيء؟ وإذا نسيت أنا، أتنسى أنت أنني خرجت من غير علمك ونفذت ما أردت ؟ أو تغفر عودتي في منتصف الليل وركوبي سيارة رجل غريب؟. فلا داعي أن تقنعني أنك جئت لأجل حب أو أطفال،فقلبي لا يراك، وطفلاك لك الحق في رؤيتهما في أي وقت تريد!.

صمتت برهة ورفعت نظرها في أسف وأكملت:

-سـيدي إنهـا أشـواك، ثـم أنـي لا أثـق فيـك، فـالطبع غـلاب.

نهض عن الكرسي يدفعه الغضب وقال:

-فهمـت الآن، قلبـك مشـغول بـذاك الشـخص.

يا حقيرة، لن أجعلكِ تهنئين لحظة واحدة معه.

رمـى كلماتـه فـي وجههـا وانطلـق يسـابق الـريح وقبـل أن يختفـي رمقهـا بنظـرة حقـد ووعيـد. ظلـت صـامتة بضـع دقائق، حتى انتبهت على صوت أستاذها:

-يمنى ما بك؟!.

رفعت نظرها في وجهه شاردة وقالت:

-لا شيء،اطمئن.

-أمتأكدة؟!.

-أجل، فاستئصال الورم لا يتم دون أوجاع.

-ما مدى تحملك ؟!.

-فوق ما تتخيل، ليس غرورًا بل ثقة في المولى.

-إذن أرحتِ قلبي.

حـدقت بسـاعة يـدها، لملمـت أشـياءها واسـتأذنته، غابـت عـن نظره وما زال يتبع إثرها همس في نفسه قائلا:

-قلة من يدرك ما أدركته هذه المرأة! كانت الأيام تتقاذفها بين أمواجها ورغم هذا كانت مثابرة صابرة، يشتد عودها يوما بعد يوم.

مضى شهر آخر،كانت مقبلة على إنهاء محاضرتها، ما أن انتهت منها، فوجئت بعصام ينتظرها أمام باب القاعة، فانتفض قلبها سعادة ولمعت في عينيها نظرة لهفة لكنها تراجعت توبخ مشاعرها وتعاتب عواطفها التي انساقت إليه. شعرت بقشعريرة تجتاح كيانها حينما رأته،يقترب منها بقامته المصقولة تعلوه ابتسامة أمل فقال:

-لا زلت عند وعدي.

حدقت به قائلة:

-أي وعد تقصد؟!.

-أنسيت آخر لقاء في المشفى ؟!.

تظاهرت بالتفكير وأجابته:

-آه تذكرت.

صمتت برهة واستطردت:

-لم يعد يجدي!.

سحب كرسيا وجلس:

-ربما قبل ذلك لكن الآن يجدي.

صمتت لحظة وقالت:

-أترى ذلك؟!.

أومأ برأسه وقال:

-أجل.

أخفضت بصرها وقالت:

-أسمعك.

ارتخى على الكرسي قليلا وأخذ نفسا عميقا واقترب قائلا:

-أعلم أنني حاصرتك كثيرا، وأتعبتك في وقت لا يسمح ولا يجوز أن أفعل ذلك، صدقيني، ما عدت أشعر إلا بك أنت، لا تلوميني على حبك منذ كنت زهرة تتفتح في بستان الرقة، أعلم أنك لم تشعري بي، وكنت أنا الذي أراقبك من بعيد،ما أسوء يوم مرّ علي إلا حينما علمت بزواجك، وحينما رأيتك أول مرة بعد أعوام،كانت عيناك تبوحان بوهج حزين يطلّ منهما وميض أشعل بنبضات حبي، فصرت سكيرًا بنشوته.
لم أتمالك نفسي إلا وأنا أتطلع إليك ونظراتك المصدومة من الموقف تلهب قلبي، لا أبالغ لو قلت لك أصبحت مجنون بك، فكنت كل ليلة في أحلامي، أقولها الآن وأعلم أنك مقدمة على طريق الانفصال منه، وأطمح أن تقبلي ارتباطي بك.

صمت لحظة وقال:

-يمنى ما لك لا تنظرين إليّ؟!.

رفعت عينيها تكافح سقوط دموعها والتزمت الصمت، حدق إليها واستكمل:

-يا إلهي أتبكين ؟ لمَ؟.

فاجأته قائلة:

-كيف حال زوجتك وطفليك؟!.

حملق مشدوها ولم يجب،زحف إلى ذهنه أشباح مخاوفه فتأملها بتمعن.

-علمت أنها مريضة!.

أومأ برأسه ينتظرها تكمل ابتسمت بألم وقالت:

-لماذا لم تخبرني، أكنت تظنني لن أعرف!.

اندفع قائلا:

-لا.كنت أنتظر الوقت المناسب، الأمر محسوم لدينا، لم يجمعنا حبٌّ، كنا قد انفصالنا منذ بضع سنوات فجمعنا مرضها ثانية، هذا طلبها ومن المروءة والنبل أن ألبي لها ما تريده،وخاصة أشتاق إلى طفليّ.

-صدقت أحييك على هذا النبل، فدعني أضحي أيضًا،فلست أقل منك نبلا. هي أولى مني بك، فلتكن معها.

قاطعها مندفعا:

-لا.يمنى أرجوك.

صاح مكملا:

-كلما تسنح الفرصة للتلاقي، تخطفين مني.

ضرب بيده المنضدة متسائلا:

-لـــمَ لا نصـــنع بيننـــا جســـرًا للتواصـــل؟أرجوك خـــذي مهلـــة وفكري.

وضعت يدها على جبهتها تضغط عليها وقالت:

-لا أنكـــر أنـــك أصـــبت وتـــرا حساســـا فـــي داخلـــي، حرمـــت طيلـــة حيـــاتي مـــن نظـــرة حـــب دافئـــة، أو لمســـة تقـــدير، كـــم تمنيـــت أن ارتمـــي فـــي حضـــن يحتـــويني ويعتصـــرني داخلـــه، فإحســـاس الوحشـــة والخـــوف مقيـــت، حتـــى جئـــت دون توقـــع تمنحنـــي كـــل هـــذا، تعطينـــي حبًّـــا واهتمامـــا محرمـــا، حـــبّ محكـــوم عليـــه بالإعـــدام ســـيظل ســـجينًا فـــي ثنايـــا القلب،صـــعب أن أجـــدك تحـــرك أنوثتي وتتوجني ملكة ولا...

بتـــرت كلمتهـــا ونهضـــت عـــن الكرســـي تتمالـــك دموعهـــا واندفعت قائلة:

-عصـــام هـــذا القـــرار لا يحتـــاج تفكيـــرا، طفـــلاك يحتاجـــان إلـــى حضـــنك فـــلا تجعلنـــي ســـببا فـــي استنســـاخ حيـــاتي. أرجـــوك يـــا عصـــام لا تحـــاول أن تتحـــدث معـــي ثانيـــة هـــذا قـــرار ولا رجعـــة فيه...انتهى.

لملمـــت حاســـوبها وحقيبتهـــا تـــواري عينيهـــا عنـــه وقبـــل أن تنصرف فاجأها قائلا:

-أتحبينني؟!.

تفاقم ارتباكها وأومأت برأسها يكفي دموعها أن تجيبه، أسرعت تهرول من أمامه لأول مرة تدرك معنى الحب، تشعر أن قلبها مذبوح، ولا تستطيع أن توقف هذا الجرح الغائر، نعم أحبته، لكنها لن تبني سعادتها على تعاسة زوجة مريضة وطفلين ليس لهما أي ذنب، فالقدر لا يعاند، ولن تدافع عن حبٍّ ولد في وقت خطأ، حبٌّ سيظل مدفونًا في القلب، تنتشي رائحته كلما هلت ذكراه.

مرت سنة كأنها أيام قريبة، كانت تجلس في شرفة شقتها وفي يديها مدونة صغيرة وقلم، تركت القلم وشردت في لحظة غروب الشمس، ما أروع ذاك المنظر حينما يتسلل لقلب محب،أظناه فراق حبيبه، لا يزال يحلم على ذكراه. تذكرت عصام، منذ سنة لم تره، بعد آخر لقاء بينهما،تتمنى لو تلقي عليه نظرة وداع قبل أن تهاجر إلى لندن، حاولت أن تأخر هذه الفرصة لكن معلمها صالح حمسّها، فليس من السهل على محاضر مبتدئ أن يجد فرصة التدرب في مركز متقدم كهناك. رشحها بالاسم لتنال هذه الفرصة، فهو يثق في قدراتها ويراها الكفء لهذه المهمة. انتبهت على طرقات ذاك الفتى الذي نما عوده، التفتت إلى الباب وقالت:

-ادخل يا أمجد.

فتح الباب مبتسما وقال:

-أماه حان ميعاد ذهابنا إلى المطار هيا.

بادلته بابتسامة حنونة وقالت:

-أكلّ شيء على ما يرام؟!.

-أجل أمي.

أغلقت الحقائب وحملتها في سيارة دكتور صالح، فهو ينتظرنا:

-أين إيهاب؟!.

لقد سبقنا واستقل السيارة. نهضت تلملم أشياءه وتأبطت ابنها، وقبل أن تغلق باب شقتها، ألقت نظرة أخيرة على المكان لتودعه،كما ودعت شقة جدتها بعد وفاتها منذ أشهر، ربما لن تعود إلا بعد سنوات أخرى. .هناك في ساحة المطار وقفت تلمع عيناها بالدموع وهي تودع وطنها، ترحل محملة بذكريات سنوات فوق الثلاثين، كانت واقفة في ثبات فلمحت شوقي واقفا ينظر لها من بعيد تلمع في عينيه نظرة ندم، أشارت لابنيها أن يذهبا إلى والدهما ليودعاه، كم تتمنى لو يأتي عصام الآن! ليودعها، ربما لن تلتقي الوجوه بعد هذا الحين. وقفت تتلفت يمنة ويسرة، فبدت نظرة قلق على وجهها سألها معلمها:

-هل تبحثين عن شيء؟!.

التفتت له وقبل أن تجيب تهلل وجهها، إنه هناك يهرول إليها، فلوحت له، تغمرها الفرحة، وقف أمامها يخفي مشاعره فتبوح عيناه،:

-صدقيني، كنت أعلم كل أخبارك، لم تغيبي عني، فكيف أعلم أن قلبي سيهاجر ولا أكون هنا لأودعه.

أخفضت عينيها تداري دموعها وصمتت، استكمل بصوت متحشرج بالدموع:

-إن كنت ستغيبين عن عيني هناك، فاعلمي أن قلبي معك وسيخبرني دوما عنك.

رفعت عينيها الدامعة وقالت:

-ليتني قابلتك منذ سنوات، لكن ليس كل ما نتمناه ندركه!.

ناداها ابنها:

-أمي هيا الطائرة ستقلع بعد دقائق.

التفتت إلى ابنها تمسح دموعها وقد حانت لحظة الوداع الأخيرة، نظرت إلى أستاذها نظرة امتنان وتقدير، فقال مبتسما كعادته:

-إلى اللقاء يا سيدتي العظيمة سأتابع أخبارك فلا تبخلي علي بردٍّ على رسائلي.

أومأت برأسها، لا تجد ما تقوله لهذا الرجل الأستاذ المحنك.

نقلت نظرتها لشوقي الواقف بعيدا يتملقها بنظرات ندم ممزوجة بالتودد، فبادلته بنظرة سمحة تخبره أنها سامحته عما فعله في حقها.

لم تستطع تلتقي عينها بعين عصام، يكفي اعتصار قلبها الآن،لم تقدر أن تتحمل هذه اللحظة، مسحت دموعها، وهرولت بعيدا عنهم وقبل أن تختفي ألقت نظرتها الأخيرة واختفت عن الأنظار.

وقف الثلاثة يتبعونها بأعينهم، وإن اجتمعت نظراتهم عليها،لكنها اختلفت ما بين ندم و احترام و اشتياق.
امرأة جمعت بين ثلاثة كل واحد منهم أخذ منها نصيبًا.

- انتهت-